سر المذبوح

وقصص أخرى

مجموعة قصصية

تأليف

مجدى يونس

طبعة ٢٠١٩

يونس، مجدى

سر المذبوح: مجوعة قصصية/ مجدى يونس؛ . - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٢٠٠ ص, ٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٧٢٣٦

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

سر المذبوح

وقصص أخرى

مجموعة قصصية

تأليف

مجدى يونس

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٣٠٢٣

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٢٣ -٦

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : سر المذبوح

المؤلف : مجدى يونس

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إهداء

إلي أهلي

وعشيرتي

والقاطنين خَالصة فؤادي

الرؤيا

رأيته ، وليتني لم أره ، ممتقع اللون ، شَارد البال عَابسا في وجهي تارة ، بشوشا تارة أخرى ، سألت نفسي :

ـ مَاذا حدث كي أراه ؟

وكأن هناك شيئا خطرًا جَاء من أجله ، دعاه لأن يَزورني فجأة بَعدما انقطعت زِيارتي له مُنذ ثلاثين عاما مضت ، لم يبح لي بِفيه عما أتي به إلي فجأة دون رسول ، ولكنه أباح إلى بيده حيث مدها ورمى على صدري مِنديلاً ، كان أبيض في يده، وعندما لَمسته صار أحمر قانئا .

ذُهلت من هول الموقف ، وعندما أدار إلي ظهره ليهم بالرحيل وقد خِفت من المِنديل نَاديته فالتفت إلي بِعينين زاخرتين بالخوف ثم صاح مُتهللا في وجهي مُحمسا إياي :

ـ قم يا أبا العمائر ، قم من رَقدتك هذه ، وانهض لِتدخل زمنك ، قبل أن يفوت الأوان ، ويَنسل الزمن من بين أصابعك

تركت في حيرة ، وهم يَفترشني ، وفكر يتوسدني ، وقد أنكأ قوله قلبي ، فَغمرتني دهشات متتابعة كأمواج بحر عَاتية ، فطفقت أسأل نفسي :

ـ بِماذا يريد أن يخبرني ويوجهني ؟ وما أمر هذا المِنديل السحري ؟! ومن أبو العمائر هذا ؟ لقد سَمتني أمي عبد الله، وهو يعلم ذلك علم اليقين ، فلماذا قال لي يا أبا العمائر ؟!

وكِدت أن أختنق من فَرط الدهشة ، وهول التَفكير فانتصبت مفزوعا بعد أن أزحت دِثاري من فوقي ، ولذت إلى النَافذة أنظر من خَلف الشيش، ثم عدت لِحديث نفسي :

ـ ومَا معنى «كي تَدخل زمنك» ؟ ألست في زمني ؟! هذا الرجل دائما يحيرني ، لقد كدت أن أفهمه بعد عِشرتي الطويلة له ، ولكني تأكدت الآن أني لم أفهمه ، وهَل هذا الرجل بشرا كما أرى أم أنه يَدعي البشرية ؟ وهل هناك كما يقال «من هو مَكشوف عنه الحجاب» ؟ فربما يَكون وليا من الأولياء

فَزعت من رؤياي فَقصصتها على بَعض أصدقائي الأوفياء بَعد المرة الثالثة من تِكرار تلك الرُؤيا في ليال متفرقة ، فلجأت إليهم أطلب المشورة في أمري وعِندما أخبرني أحدهم أنه يَعرف مُفسرا ومُؤولا للأحَاديث والرؤى والأحلام لم أتردد في الذهاب إليه .

رأيته رجلا وقورا ومع وقاره وهيبته كان لينا غضا ، أجلسني على أريكة وجلس مقابلا لي ، ثم قصصت عليه رؤياي .

وخرجت من عِنده أهوزل في سيري وأنا مُتدثرا بالخوف متزملاً بالفزع ، وكادت أن تدهمني سيارة ، فلم أكن في وعيي وشعوري بعدما هالني أمره وأمر الرؤيا .

دَخلت الشقة ، ثم خَلعت ثيابي وارتديت جلبابي الأبيض الفضفاض ، ونمت على السَرير في انتظار مَصيري .

مرت ثلاث ليال ولم يَحدث شيء حتى وجدت أصدقائي فوق رأسي بعدما تغيبت عنهم وشَعروا بغيبتي جاءوا يسألونني عما حدث لي فأرقدني تلك الرقدة ، وبماذا أخبرني البروفوسير ـ كَما يسمونه ـ عن رؤياي

ولكني كَتمت سره وكذبت عليهم بأني أصيبت ببرد تسبب في ارتفاع حرارتي فرقدت في سريري حتى أشفى بإذن الله ، حَدجوا في وجهي بأبصارهم فرأيت فِيها كذبي وعدم تصديقهم لي ، فبدلت الحديث ، وبدأت أسأل كل منهم عن حاله وشأنه .

وتأكدت أن البروفوسير كَذاب ، لا يفقه شيئا ، ولا يَدري شيئا، وكل الكتب التي أخبرني بقراءتها زائفة ومُضللة ، فقمت من مضجعي ، ولكني قمت على خَوف وحذر ، فربما يحدث لي ما أحاذره في الشارع أو في عملي ، ولكن كان علي القيام للبحث عن شَخص آخر يَفك لي رُموز وطَلاسم ما رأيت .

وكل مَـن ذَهبـت إليهـم كَانـت تَأويلاتهـم مُتناقضـة ومُتضاربـة ، فَبعضهـم أولهـا بطريقـة تَبعـث علـى الفـرح والسـرور ، مِمـا جعلنـي أجـزم بأنهـم جميعـا كَاذبـون ونصابـون ، ولا يَسـتحقون تلـك المكانـة التـي يَعتلونهـا في مجتمعهـم ، أنفقـت الكثيـر مـن المَـال والجهـد والوقت الثَمـين ، ورغـم ذلـك خَذلنـي العلـم ، فلجـأت إلـى رجـل يظـن فيـه النـاس أو يعتقـدون أنـه ولـي مـن أوليـاء اللّه ، ولـم ألجـأ إليـه إلا بعـد أن ضاقـت بـي الأرض بمـا رحبـت ، ودخلـت في دوامـة تيـه لـم أعـرف الخـروج منهـا ، فَسـمعت كلام أحـد أقاربـي ، وذهبـت إليـه فربمـا أجـد حـلا وجوابـا لمـا أنـا فيـه .

ومـع أنـي كنـت مُشـمئزا منـه إلا أنـه كان لـي مبتسـما بشوشـا، رأيـت آثـار السـجود في جبهتـه ، فأجلسـني بـين يديـه وشـرع يسـألني أسـئلة غريبـة ، سـألني عـن ميقـات مـا رأيـت ، فَاندهشـت وقلـت :

ـ وما علاقة هذا بالتأويل ؟

ـ هذا مُهم جدا ، أريد أن أعرف هل مَا رأيت رُؤيا أم لا ؟

ـ وكَيف سَتعرف ؟

ـ إذا أخبرتني بِميقات رُؤياك

ـ جَاءتني في أوقات مُختلفة

ثم تَركني وقام يُصلي ، وبعدما انتهى من صَلاته ، طَفق يُحدق فيّ ، واقترب مني ، فارتعبت وخِفت وانثنيت بِظهري للخلف، فأمسك بيدي ، مربتا عليها يطمئنني ، ثم جَذبني وأجلسني مرة أخرى بين يديه ، وأدام النَظر في عيني ثم رفع بَصره إلى السَماء، حتى شَخص بَصره ، من يراه يَرى إنسانا غائبا عن الوعي ، فلم يتحرك ، ولم يتكلم ، ولا تسمع له هَمسا، وأحسست بأن نَبضه قد سكن ، ولكنه فاجأني بِيقظتهُ ووعيه، ثم تفوه بأشياء لم تكن في الحسبان ، انصرفت من عنده مَذهولا، خرجت وأنا أجر أذيال الأمل والبهجة بَعد ما رفض أن يأخذ مني مالا ، فاندهشت وسألته فابتسم في وجهي وقال :

ـ يا ابني أنا لا آخذ مالا على عَمل الخير مع العوام ، فكيف وقد علمت قدرك وما ستفعله ، ولكن عِندي طلب إليك ألا تخبر أحدا بذلك ، دعه سرا إلى أن يشاء اللّه .

هزني حَديثه ، خَرجت وقلبي تغمره فرحة وسُرور ، ولكن كي يصبح هذا الأمر علما يَقينا يَقترب من عين اليقين قبل أن يَصير حق اليقين كان علي أن أطمئن زيادة فوق ذلك ، فَذهبت إلى رجل آخر على النقيض من السابق ، وعرفت بعد أن خرجت من عنده أنه يدعي ذلك ، ونَدمت على ذهابي إليه بعدما أخذ يشككني في أمر الرؤيا ، وكأن ما رأيت وهما أو من نَسج خَيالي، ولا أدري ما

الذي جعله يُشككني في أمري ويُخبرني بما قال ، وقد تكون رؤيا حقيقية كما قال الشيخ ، وربما يكون تأويلها أيضا كما قال .

وأوغل لساني في لَعنه وأنا هائم على وجهي في الشَوارع والطُرقات وكأني لا أعرفها تَائها فيها ، وأنا الذي سِرت فيها كثيرا حتى حَفظتها ولكن ما رَأيت زلزلني أقض مضاجعي وبلبل أفكاري وهز حياتي كلها ، وكأن حياتي لم يعد فيها سِوى تلك الرؤيا .

قمت كي أصلي الفجر بعدما سمعت النداء وكأنه يُناديني وحدي ، توضأت ثم خرجت أرقل في سيري حتى وقفت خلف الإمام الذي تلا آيات من سورة يوسف عليه الصلاة والسلام وتَذكرت رؤياي عندما تلا قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾

فَدعوت الله عز وجل في سُجودي وألححت في الدعاء أن يُريني نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام في المَنام كي أعلم تأويل تلك الرؤيا التي غيرت حياتي وكأني صرت أحيا لها، بعدما تضاربت أقوال المعبرين ، وتمنيت أن تكون كما قال الشيخ .

ومر أسبوع وأنا في انتظار يوسف عليه الصلاة والسلام ، لكني لم أره فكدت أن أختنق ، حيث لعبت بي الأوهام وكستني

الوساوس ، وفتقتني الهواجس وبت أفكر في تأويلات وتعبيرات من قابلتهم ، عبست بسبب بعضها وابتهجت ببعضها الآخر، وشعرت بالنصر والقوة عندما أتذكر تأويل الشيخ ، وظللت أدعو الله في كل صلواتي أن يهديني إلى الصواب والحق المبين، تضرعت إليه باكيا خاشعا خائفا من جبروته متذللا له أن يهديني إلى الحق وإلى تأويل تلك الرؤيا التي أقلقتني وأنهكت قواي النفسية والجسمية .

كنت أقوم في الثلث الأخير من الليل أبكي في سجودي لعل الله عز وجل يهديني ، وعِندما أنهيت صلاتي أسندت ظَهري إلى أقدام كرسي خَشبي خلفي مباشرة ، أخذتني إغفاءة ولعب بي الكرى فَتمايلت رأسي ثم قُمت منها فرحا مسرورا ، رافعا يدي إلى الله عز وجل أشكره على مَا أراني ، فقد رَأيته رجلا أبيض ، لم تر عَيني في جماله قبل ، وكأنه بدر التمام ، سألته عن اسمه فابتسم ولم يبده لي ، ثم اقترب مني يمس شعري ويمسح على وجهي بيديه اللتين مثل النور الشفاف ، وكأني رأيت ظهر يده من بطنها ، ثم أخبرني بما أريد ، وهداني إلى الحقيقة ، ووضعني على طريقي الصحيح .

وقبل أن يدعني طلب إلي أن أسعى إلى تحقيق ما خلقت لأجله ، أخذتني هزة واعترتني نشوة أمل ، فسجدت لله عز وجل شكرا .

وبدأت أعد نفسي للهدف الأسمى الذي نصبوا إليه كثيرا، ونريده أن يتحقق في أقرب وقت كي نسترد حقوقنا ، وكل ما ضاع من حياتنا .

●●●

شيء آخر غير الحياة

كان لابد أن أدرك أني غَير قادر على إدراك ما آراه دائما أثناء سَيري إلى المدرسة إدراكا تاما ، وإن كنت مُدركا شيئا فيه لم يتسن للآخرين أن يدركوه ليس لأنهم عاجزو الإدراك ، ولكن لأني وَجدت ضالتي فيما رأيت .

رأيت حَياتي ورؤيتي في شخصين هرمين قد تفشى الشيب في رأسيهما وحفرت التجاعيد في وجهيهما علامات والتواءات بعضها كأنه لوحة فنية مزخرفة كأنهما ولدا هَكذا على مقعدين، أحدهما خَشبي بنقوشات إسلامية وكأنه من القرون الوسطى، والآخر حَديدي بعجلتين مدفوعتين يرقد فوقه رجل أبيض ، فكل ما في وجهه أبيض سِوى رمشيه وإن كان الشيب بدأ يَتسلل خفية إليهما ، إلا أنه لم يَعبأ بذلك ، حتى إنه لم يعبأ برقدته الطويلة فوق هذا الكرسي ، والتي جعلته يَشعر بالانكسار في بَعض الأحيان، عندما يرى الخلائق تَمر أمامه، وهو جَالس هكذا لا يَستطيع أن يَتحرك ، أو أن يُحرك حتى خِنصر قدميه ، ولكنه في ثواني سُرعان ما يؤوب إلى طبيعته المؤمنة بِقضاء اللّه وقدره .

ولكنه كان يرجع مرة أخرى في لحظات ضعفه إلى شعور غريب يكتنفه كان يُزلزل حياته ، ويَفتق أركانه ، ويَشتف وجهه، ويُرجف فؤاده ، ويدمع عَينيه .

لم يكن هذا الشُعور يُسيطر عليه ويَستعمره ، بل إنه كان يؤوب مرة ثانية إلى طبيعته ، ويَندم على شعوره هذا ؟ فَكيف يجول في نفسه ذلك الشَعور بالفَخر وتنتعش نفسه بِالزهو على الآخرين ، وهو هو في رَقدته هذه بَينما هم يَسيرون مُنتصبين على الأقدام .

ولَكنه كان يُسلي نفسه ويُصبرها ويخفف عنها شيئا من آلامه وبرحاء قلبه بأن رَقدته هذه كانت من أجل أن يسير الآخرون آمنين على أقدامهم في هذا البلد ، دُون أدنى شُعور بالخوف من المجهول أو شعور بالقلق والأسى تجاه المَاضي وأوجاعه .

لم يَكن ماضيه مرتعا بالأحزان ، ومفعما بالآلام وزاخرا بالحسرات والمآسي كَحاضره ، فَماضيه كان انتصارًا على الخَوف، والذُل والقَلق والإهانة له وللآخرين .

إنه يُدرك أن مَا فَعله لم يكن بُطولة ذَاتية فَردية ، ولكنها بُطولة جماعية تشارك فيها الجميع بقلوبهم وبألسنتهم أيضا ، ولكن الفرق بينهم وبينه أنه سخّر فيها أيضا بالإضافة إلى قلبه،

ولسانه روحه ويديه ورجليه ، وجسده كله ، حيث بَذل ما في وسعه كل ينال الشهادة ، ولكنه لم ينلها ، لكن نيته كانت تريد إحدى الحُسنيين ، قدم أغلى ما يملك فداء للوطن ، ولكنها عادت إليه مرة أخرى ونال النصر مع أن غيره نال الحُسنيين معا .

آب بعدما أبلى بَلاء حسنا في مَيادين الشرف ، مُسطرا أروع البُطولات ، رجع إلى مَسقط رأسه بالمنصورة بعدما أصيب بقذيفة غَيرت مَجرى حياته كلها حيث عَاد مَشلول النصف الأسفل مَبتوك اليد اليمنى ، ولم يَعد يَملك إلا اليسرى التي إعتاد على أن يَلعب بها الشَطرنج دائما مع صَديق عُمره «الحاج عبد الواحد» الذي لم يَعد له غيره ، بَعدما تركه مَن تَركه مِن أهله وهَجره من هَجره، ومَات من مَات ، ولم يعد لَهما عمل في الحياة سِوى اللعب بِالملك والوزير والجُنود أمام العيون السائرة.

لم يكن أحد يَلتفت إليهما ، كل سَائر في طريقه ، مُنشغلين بِهمومهم ومَصالحهم ، قد تَغيرت الوجوه ، وتَبلدت الملامح ، وصارت الكآبة عنوانا صَريحا لكل مَا تراه .

لم يَعد يَهمهم هذا البطل بعد مرور الليالي ، وكر السنين، لم يَعد يأبهون له وكأنه غير مَوجود في الحياة ، لم أكن مِنهم ، وإن كنت أسعى إلى عَملي ، ولكني كنت أقتطف شيئا من عمري لأتأملهما جيدا في ذهابي وإيابي ، ولو لدقائق مَعدودات ، وهما

يُميتان الملك والوزير ويخرجانهما من دائرة الحياة كان نظري مركزا على شيء بَحثت عنه طويلا في الحياة ولم أجده، ولكني قد وَجدته أخيرا في تلك الوجوه التي تَفيض وتشع بِعلامات الشَيخوخة ، ومُقاربة الفناء ، كنت أنظر إلى تلك العروق الخشنة التي تنبض بالحياة في ظهر يَده اليُسرى .

كان يمر النهار وينقضي وهما مازالا في جلِستهما هذه ، فكنت أراهما في عودتي من مدرسة «ابن لقمان» الإعدادية ، كثيرا ما كنت أتوغل في حواري مع نَفسي بشأنهما :

ـ ألا يَأكلان ؟ أم أن الطعام يؤتى إليهما في مَكانهما هذا ؟ وإن كان كذلك فمن الذي يَرعاهما ، ويعتني بهما ؟

دارت في رأسي أسئلة كثيرة لم أجد لها أجوبة ، ولكن هذا لم يغير شيئا من موقفي ، فَظللت كَعادتي أتكلف المسير عليهما لأراهما وهما يلعبان الشطرنج في تلك البلكونة الأرضية التي تَطل على النيل ، والتي أرجعتني إلى الحنين بِمظهرها الخلاب الذي يَفيض عراقة ، سائخة في ربوع التاريخ بأرضيتها الخَشبية، وسُورها الخشبي المطرز بالزخارف ، والدِيباجات ، والنُقوش والمَشربية القديمة التي تَتسنمها ، وتطل منها سيدة عجوز ، كانت هي الأخرى تطيل النظر إليهما ، وكأنها تَعرفهما حق المعرفة ، فهي الأخرى قد أحست بالغربة في هذه الحياة ، وكأنها في زَمن

غيـر زَمنهـا الـذي ولـى مدبـرا ولـم يُعقـب ، فـأرادت أن تعيـش في زَمنهـا ومَاضيهـا مـن خـلال هذيـن الرجلـين تـرى في وَجهيهمـا وجـه الزمـن الغَابـر الـذي عَفـا عليـه وجهـه الحديـث .

ومَـع أنـي مِـن هـذا الوجـه الحَديـث إلا أنـي كنـت أغـوص في وجهـه الماضـي مـن خلالهـم كلمـا سـرت ذاهبـا مـن هنـاك أو راجعًـا .

●●●

عِيد ميلاد

كانت تَأوهاتهُ ، وأنينه الخافت يوقظها دائما من نومها ، وإن كانت لا تنام كثيرا ، فلم تَنم منذ أن أصيب زوجها ، كانت تظل رفيقة فراشه إلى أن ينام وحتى بَعدما يأخذه الكرى بعيدا ، ويغرق في لجته لم تكن تَتركه وحِيدا ، بل تَظل في الغُرفة جَالسة فَوق الكَنبة الراقدة أمام السَرير ، وأحيانا كَان يَسحبها النَوم فَتتمايل رَأسها لَما مَستها أيدي النُعاس ، ولكن سُرعان ما تهب واقفة من إغفائتها السريعة إثر سماعها أنينه وخنينه ، فتقوم لتعطيه الدواء .

كانت تُحبه حبا شديدا لم ينطفئ بريقه في يوم من الأيام رغم قساوة ما مروا به ، فظل طاهرا لم يُدنس ، أو يغبر في زحمات الحَياة المتتابعة ، حتى توج هذا الحب بالزواج الذي دام لأكثر من ثلاثين سنة .

ومع هذا العمر الطويل لم يخفت لهيب حبها لحظة من لحظات حياتها ، وإن كان ما يقابلونه في الحياة من مَصاعب ودواه كانت تلوثه وتكدره في أوقات الاحتياج .

لم يكن هذا الحب حبا قائما على المصلحة كغيره مما هو متفشٍ لدى كثير من الناس بل كان حبا اشتراكيًا ، مع أنه لا يؤمن بمبادئ الاشتراكية ، فلم يمنح حبه كله لها وحدها ، ويحرم منه الآخرين ، بل أشرك فيه غيرها كثيرًا ممن يحتاجونه ، وهي مع تفانيه في خدمة الآخرين ، وبَذله الحب والعطاء لهم إن كان في مقدوره ، لم تَغر كغيرها من النساء ، بل فعله هذا جَعل حبها له يبلغ الذروة ، ويَتربع على عرش مشاعر قَلبها ، بل إنها كانت تحثه وتدفعه لأن يكثر من حُبه للآخرين وعطائه لهم ، من المحتاجين، ومع هذا كانت تطلب منه ألا ينسَى نصيبها من هذا الحب ، فيبتسم لها تلك الابتسامة الشفافة التي تشعرها بِجمال الكون من حولها ، تشعر عندما تراها تسربل وجهه بأن الحياة ما زالت لَها قِيمة ، وأهمية بعد هذا العُمر المديد الذي مر كلمحة بصر أو أقرب من ذلك ، وحتى هَذه اللمحة لم يشعرا بها ، لأنهما جعلا الحب تاريخا لهما .

لم يَكن بينهما فقط ، بل كان هُناك الحب الأصلي الذي تتفرع منه أغصان الحب الأخرى : حب الله عز وجل ، وحُب الوطن وما فيه ، وحب فِيما بينهما لم يقصدا التثليث ، فهما يعلمان أن حب الله هو الأسمى والأبقى وبدونه لن يكون لباقي مَعاني الحب الأخرى أي أهمية أو فائدة .

فَكان حبه للناس دليلا واضحا على حبه للّه عز وجل وحُب رسوله صلى اللّه عليه وسلم ؛ لذا فقد بذل حياته للناس في سبيل إسعادهم ، وإزالة الأسى من قُلوبهم ، ومَحو الدمع الواكف في عيونهم

وصل من قَطعه ، وعفا عمن ظَلمه ، ولم ينتقم لنفسه قط ، رعى أولاد أخيه اليتامى مع أنه غَمط حقه ، وأذاقه مِن الظلم ألوانا .

كان الخير طريقه ، كم من بِطون فَتقها الجوع أشبعها ، وتُعساء وحزانى لملم جراحهم ، وطيب خواطرهم ، ولم يرد سائلا قط ، ولو في طلب تَافه .

وهو مَن هو ؟

«عز الجيار» ذو المَنصب الرفيع والمَكانة العالية بين وجوه القوم وملئهم ، أكثر من مُصاحبة الفقراء فقد كانوا هم أكثر أصدقائه ومَعارفه ، مع تعدد عِلاقاته مع وجوه القوم وكبار رجال الدولة .

فَذاعت شُهرته ، وسمعته الطيبة بين الناس في حَينا بل في الأحياء المُجاورة كلها ، وصار مَثلا أعلى لكل صبي وصبية، وأبا لمن لا أب له ، وأخا لمن يَحتاجه ، وعونا لمن يَطلبه ، فلو ترى

تهافت الناس عليه كي يَقبلونه أو يَقبلون يده التي يَنزعها بِشدة، أو تراهم وهم يَركعون وينحنون أمامه ، ولكنه أبى ذلك وبشدة وبكى أمامهم وقال بصوت رطب :

ـ لا انحناء ولا ركوع إلا للّه عز وجل ، أمر ألا نَعبد إلا إياه، ما أنا إلا بشر مثلكم

كان مكللاً بِالتواضع واللين والرفق ، الحب كان تاجه ، وحسن خلقه إمامه وعطفه وحدبه على الآخرين كان هدفا له وغاية ، لم تنطفئ شعلته قط حتى في أحلك مَا يمر به من مَرضه الذي أقعده رفيق الفراش وأنيسه ، يُقاسي سكرات المرض وحده ، وهو الذي كَان يخدم الآخرين ويُساعد المحتاج ويَنصر المظلوم ويأخذ على يد الظالم ، تَفرقوا من حوله إلا هؤلاء الفقراء أصحاب لواءات البؤس والعَوز ، تمنوا أن لو يَفدونه بكل غال وثمين ولو بأرواحهم .

دلف عمره أمام عَينيه يمر كلمح البصر ، فتذكر أنه لم يحتف بِميلاده ولو مرة واحدة ، لقد نسي حتى ميقاته من كثرة أشغاله ، التي مَنحها للآخرين ، الذين لم يَعرفوا هم أيضا تاريخ ميلاده كي يُعبروا لهم عن شيء ولو ضَئيل من حبهم وعِشقهم له، ولو بقول معروف وكلمة طيبة : أطال اللّه في عمرك على طَاعته وأسعدك دائما .

وإن كان كل يوم يَمر عَليه يَشعر بأنه مِيلاد جَديد له ، عِندما يرى ابتسامة على وجه بائس أو فقير ، أو يَسمع دعوة من عجوز، أو مظلوم أو ذوي العثرات ، ولكنهم وإن كانوا لم يعرفوا مِيعاد ميلاده ، لم يكن لينسوا مِيقات موته .

●●●

العوائق

كثيراً ما تَختلط عليّ الأشياء وتَتداخل الأمور في عَقلي وفي وجداني فَيتحرك ضَميري وِفقا للتَصور الذي يُوهم عَقلي وفِكري بأن هُناك من يُحاول جَذبي إلى ما لا أعلم عَنه سِوى أنه يَدفعني إلى النَشاط والاضطراب والثَوران ، ولا أشعر بِنفسي إلا وأنا أسير على طَريقه ولا أدري مَا الذي يَختلجني وأنا في مُنتصفه .

أخذت يَداي تَمتد إلى صُندوقي الخشبي الكبير الذي يلم أشلائي العتيقة التي قد ورثت بعضها عن أبي ، وهي في نظر كل من يراها عديمة القيمة لعدم نفعها في نظرهم ، ولِشكلها الرث، وهَيئتها البذيئة ، ورائحتها القديمة المكمكمة التي تبعث على الاستياء والتقيؤ ..

لكني كنت أرى غَير ما يَرونه، فقد كنت أعشقها ، وكل ما أملك، ليس فقط لأنها إرث عَائلتي ، ولكني أرى فيها هويتي وصُورتي الحقيقية ، والتي أحاول أن أخفيها عن الناس ، وأخفي مَعالمها ورسومها كي لا يَستعمرني أي من المدخلات الغريبة عني وعن مُعتقداتي وحياتي من بشر أو فكر أو مشاعر تنتابني بين الحين والآخر ..

وهـذا مـا جعل كثيـرًا مـن النـاس والأفكار يَتحاشـوني ويَجتنبونـي فعشـت في عزلـة عنهـم في هـذه الشـقة الواسـعة وَحـدي في جانـب والآخـرون في جانـب آخـر

وكان هـذا الصنـدوق بِمحتوياتـه مهمـا جـدا ، أشـتم فيـه روائـح أبـي عِندمـا كنـت أفتحـه .

كنـت أتنفحهـا كلمـا تَغشـاني عثـرات وتُصرعنـي مصائـب ومصاعـب ، وعندمـا كنـت أتلمـظ حنقـا وبؤسـا ويأسـا أجدهـا أمامـي تدعونـي ، وكنـت ألبـي نداءهـا وأقتفـي آثارهـم في صندوقهـم العَتيـق ومحتوياتـه التـي رغـم رثتهـا ورائحتهـا المقـززة كانـت تُرشـدني إلـى مـا يُبعدنـي عـن الضـلال في نظـري ، ويدفعنـي إلـى الأمـام في ثبـات ورسـوخ ، وتَعـود إلـيّ راحتـي واسـتقراري النفسـي مـن جَديـد ..

ولكن أوقـات يأسـي وحزنـي كانـت تَحتفنـي غالـب حياتـي ، فكنت أدخـل في صِـراع نفسـي مـع نفسـي أحادثهـا كثيـرًا

ما الخطأ في حياتي ؟

ربمـا تَكوينـي الفكـري أو عِنـادي وتعصبـي ، الآن فقـط يَنكشـف لـي أن حياتـي كلهـا كانـت تَافهـة ، وغيـر ذات قِيمـة ، وفَشـلاً مزريـا أدفـع ثَمنـه الآن جهـلا ونَدمـا وأسـفًا علـى َمـا فـات . وقـد فَـات الكثيـر . وحقـدًا علـى العالـم وكَراهيـة لـكل مـا فيـه ورغبـة في تدميـره وتدميـر نفسـي بعـده

فأنا من فعل في نفسي هكذا ..

أنا من ركدت خَلف الأوهام والخُرافات ضعت في لجاتهم، ولم أعرف كيف الرجوع ؟ فهل هناك طريق واضح للرجوع، والبدء من جديد ، ونسيان ما فات وما حدث ، وطي تلك الصفحات الغابرة القاتمة من حياتي ، وإذا طويت هل ينساها الآخرون أم ستظل سطورا مدلهمة في حياتي ؟ وإذا نسيت فهل أبدأ مِن عِندهم ، أم أغير جوهم ، وأخطر في طريق آخر بعيدا عنهم لا يعرفونه ؟

وإذا بدأت فمن أين هذه البداية ؟

هل ستكون البداية الجديدة جزءًا من ماضي في تَاريخي مع سارة وعينيها اللامعتين ، والتي تَجاهلتني وأرتجت في وجهي كل أبواب السعادة ، بعدما رمتني بِسهام لحاظها في صِدري .

وكأن قَلبي شق وأخرج منه سَواد الماضي ووضع فيه بَياض وجهها ، وَرقة مَلامحها ، ولِيونة صوتها ، وتَأنق ملبسها الذي ينبئ عن سَلاسة الطبع وبساطة الأمر وأصالة المَعدن .

أحسست أنها البداية التي بَدأت فيها حَياتي ، فَبنيت ما يَبنيه أمثالي من المُحبين وقعدت في صَمت أنتظر السَكن مَعها، ومَددت يَدي لاستقبال عَروسي المُزينة بأنضر الحُلي ، وأبهى الزخارف ، ولكني صُطدمت بالواقع المرير واستيقظت بِغفلة السكران الذي

تمايل وتطوح يمينا ويسارًا يكسر كل ما يُقابله فَهدمت ما بنيته ، إذ إنه كان في عَقلي أنا وَحدي .

فلم أزين لها في فكرها كما زينت لي في فِكري ، لم تَستقبلني كما استقبلتها بالزهور والمُوسيقى الهادئة ، ولكن ذلك تلاشى وتَبخر في الفَضاء عِندما صَحوت على الحقيقة المُرة ، وتَنبهت إلى الفَارق الشَاسع بَيني وبَينها ، والذي زاد قَلبي حِقدًا وحِنقًا على العالم كُله مع أنه لم يُذنب في حَقي .

وأخذ يَتسلل إلى قَلبي شُعور بِالغم ، لم أعرف مَصدره الحَقيقي ، لم يَكن بِسبب ما حدث مِنها ، أظن ذلك ولست مُتأكدا، وربما يَكون هو السبب ، وعاد فِكري إلى الوراء ، إلى مَا حَدث بين ابني آدم من قتل أحدهما للآخر بِسبب امرأة ، وما حدث لي بعد آلاف السنين بِسبب فتاة أكننت لها بين الجوانح والضُلوع حبا جارفاً ، وتمنيت لو نَبدأ معا من جديد، وكنت قد قَتلت الماضي بِطريقتي التي لا يعرفها كثير مِن الخلائق ، وكان لابد أيضا أن أقتل الماضي المُتمثل فيها كي أولد وأستطيع أن أبدأ وأن أحيا من جديد ، وانتهت بِدايتها معي ورميتها خَلف ظَهري .

قد تكون بِدايتي مُجددًا من حيث انتهى الآخرون في كل شيء، وأن أعتاد ما اعتدته سَالفا من تِكرار نفس الأفعال دُون تَغيير أو تَبديل ، وعندما اعتدت ذَلك وُجهت إلى ضَربات هي أقوى من

نَصل السيوف ، وأشد من حد السكين أدمت حَياتي وصبغتها بلِباس الغِربان ، وأنهكت عَزيمتي التي كَانت جَبارة وصرت أحمق بِلا عقل بلا إرادة أنفذ مَا يُمليه علي وسواسي القَهري الذي لازمني فترة هي من أحلك فَترات حياتي سوادا، وأكثرها ضياعا وانهزاما من عَدو خفي لا أراه ولا أعلم من هو وأين مَكانه ؟

رُبما يكون شَيطانا كما يَقولون ، أو نَفسي ، ولكني حَتى الآن لا أعرف مَن هُو ؟

رُغم أني ذهبت إلى كثير من الأطباء النفسيين ، وقد كنت غير راضٍ للذهاب إليهم ، وحدث ما كُنت متوقعه ، أحطت بتأويلات بَيولوجية ، وتَفسيرات سَيكودينامية ، وَوجدت نفسي غائبا في عالم فرويد دُون أن أشعر .

ووصفت بأني من الشَخصيات الشرجية التي تتميز بصفات ثلاث لا أملك منها سوى صفة العِناد ، لكني لست بخيلا كما أني لست مُنظما ، فهو يأخذ مني موقفا عدائيا ..

كما أني لا أملك شيئا حتى أبخل به ، ولكن وجه إلى اتهام بأني أبخل على نفسي بالسَعادة التي بين يدي ولا أراها !!

أتصدقوني لو قُلت لكم أني لا أعرف معنى السعادة حتى الآن، ! ولا أعرف كيف تُجلب ؟

المهم أني صرت شغل جمع من الأطباء النفسيين الذين وجدوا فيّ حالة شاذة وغير مفهومة ..

وعندما فشل علاجهم معي بشتى الطرق المختلفة وضعت تحت مراقبة شديدة كي يحللوا سلوكي بعد العلاج كما يزعمون، كانت الصاعقة عندما ازدادت حالتي سوءًا مما جعل أحدهم ربما أكبرهم سِنا وعلما ، قد ابيض شعره واشتفت التجاعيد وجهه ، قال متأسفا:

ـ أنت من أغرب الحالات التي واجهتني منذ ثلاثين سَنة، منذ عملي في هذه المهنة التي أكدت لي فشلي بفشل حالتك للاستجابة لِكل ما قدم لها ، لقد استُعمل معك أقوى عقاقير علاج الوسواس القهري ...، أنا لا أعرف كيف لم تتحسن حالتك ولو بنسبة واحد في المائة بعد كل هذا ؟!

فقد تجرعت «الكلومبرامين» وهذا العقار حوالي ثلثي المرضى أظهروا تحسنا كبيرا بتعاطيه ، وتَحرروا بدرجة كبيرة من سلوكهم القهري

أما أنت فلا أدري مَاذا أفعل معك ؟!

ربما أعتزل تلك المِهنة وهذا هو ما أتيقن منه ، لقد أصبت بيأس وتشاؤم لا حدود له ، ولا أعرف أأتحسرُ عليك أم أتحسر

على نفسي ؟ أنا أنصحك أن تذهب لأحد السَحرة والدجالين المَعروفين ، اسأل عنهم وستجد آلافًا يَدلونك عليهم ، ومن الآن قد انتهت عِلاقتي بك هيا ، قم انصرف .

لم أكن راضيا البتة من الذهاب إليهم ، ولكن إرضاء لوالدتي المريضة فعلت ما لست مقتنعا بِه ، وهذا لم يحدث قط في حياتي، ولكن كان يجب أن أقطع خيطا يَخنق رقبتي ، فوجدت نفسي أنسدل وراء ما أشار به عليّ بعض الناس وهو نفس الأمر الذي قد نصحني به الطبيب بعدما أنهض مرضي جسده وعقله .

وسألت نفسي :

ـ كيف يقول طَبيب مثل هذا الكلام ؟!

ـ كيف ينصحني بما يُناقض العلم ؟!

وجاءني الجواب عِندما تذكرت قول أبي مُعلم اللغة العربية لي ذات مرة :

ـ « يا بني إذا ظهر الجهل واستحكم يصبح كل شيء تحت يديه والكلمة كلمته ويَتقلص العلم وينقص بنقص العلماء الحَقيقيين»

لم أفهم معنى قوله ذاك إلا عندما نُصِحْتُ بالضلال والكفر من بعض مدعي العلم .

ولثاني مرة أفعل شيئا لست مقتنعا به ، ولكن كان علي أن أقطع الحبل الملتف حولي رقبتي ، وكان علي سحله أمام الناس وبأسلوبهم ، فذهبت إلى من دلوني عليه ، وكان معي رجل مسن على معرفة به.

ظللنا ننتظر خروج الدخال في غرفة مظلمة ، وأعصابي باردة وثابتة كأنها ميتة حتى رأيته ، فتحركت أعصابي واضطربت، وفارت رأسي من الرهبة فقد رأيت رجلا طاعنا في الكبر ، أحدب الظهر ، تقوده عصاه ، بلحية بَيضاء خَفيفة، وعَينين جَاحظتين ، ما رأيت جُحوظا قط أقبح منِه ، كانتا تبرقان، فارتعد فؤادي من نَظرته إلي.

وأخذ الخوف يُزلزل كياني عندما امتدت يده إلى يدي، واعتلتها وضغط عليها بشدة ، وطفق يُتمتم بكلمات لم أفهم منها حرفًا ...

وازداد خَوفي الذي انقلب إلى ذُعر مشوب بهلع وروع عندما شعرت بسخونة يدي التي ارتعشت من شِدة السخونة ، وأخذت بُرودة تتسلل إلى جَميع جَسدي رغم السُّخونة التي احمر منِها خدي ، وتَذكرت ما قرأته في «علِم الطبائع» حيث يَزعم الهنود بأن الشيء إذا أفرط في البرودة صَار حارًا مؤذيًا ، وكانت حالتي على العكس مِما قيل ، فقد بَردت من شِدة السُّخونة .

وكأني شخصية شاذة في كل شيء ، في صِحتي كانت مُعتقداتي وآرائي غير مُعتقدات الكثير ، بل كانت تُناقضها مما جَعل منهم من يَرميني بالانشقاق عنهم .

رغم أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وأصلي كثيرًا ، حتى ظننت أن ما بِي من وسواس قهري هو من كَثرة إفراطي في أشياء كثيرة اعتدتها كالصلاة والقراءة الكَثيرة في علوم عَديدة .

هذا كان ظني الذي يَقترب من اليَقين .

ورغم أن الساحر وعدني بأن الشفاء أكيد إن نَفذت ما يَقوله واستخدمت ما صنعه لي ، ولكني حَمدت الله عندما خَرجت من عنده ، وقطعت الأحجبة ، ولم أغتسل بما أعطاه لي ، ولم أفعل شيئا مِما أمرني به ، ولم أزره كما طلب إلي بعد مرور ثلاثين يوما، فلم أشأ أن أعالج بالسحر والدجل والشَعوذة، وأنا أعرف حَالتي جيدًا وأعرف عِلاجها ، ونَدمت على مَا فعلته بِنفسي من ذهاب إلى السحرة والأطباء النفسيين ، وأنا على بصيرة بِحالتي .

ولكن هو العناد الذي زج بي في غَياهب الجهل والضلال، فلم أصدق ما قَاله الدجال وإن كانت الوساوس تُوشك أن تُوقع بي بِتصديقه ، ولكني تَذكرت حديث النبي عليه الصلاة والسلام

((مـن أتـى كَاهنـا فصدَّقـه بمـا قـال ، فقـد كفـر بمـا أُنـزِل علـى محمَّـد)) فاستغفرت اللّه عـز وجـل وتَشـهدت وصليـت ركعتـين شـكرا للّه أن نَجانـي ممـا كـدت أن أقـع فيـه ، وأن أنحـرف وأضـل، وأنـا أعـرف مـا بـي جيـداً .

ولكـن علـى أي حـال الإنسـان لا يَتعلـم بِسـهولة ، وطالمـا أنـي أعـرف ذَلـك فمـا كان لسـواي أن يَقطـع هـذا الحبـل .

فَقطعت كل مـا اعتـدت عليـه حتـى الصـلاة وقـراءة الكتـب وهمـا روحـي ، فَشـعرت بِضيـق شـديد ، وغَصـة في حلقـي كادت أن تَخنقنـي، وأنـا أسـمع المؤذن يقـول :

- «حي على الصلاة» ولا أهـرول إليه

حَاولـت أن أكظـم ذلـك ، ولكـن فـؤادي كاد أن يَختنـق وأحسسـت بأنـه يَنخلـع ويُنتـزع مـن مَكانـه ، وأن روحـي تَنسـل مـن بـين جَنبـي .

ولـم يـزل بِـي كل هـذا رغـم مُحـاولاتـي لكظمـه ، يَفتقنـي ويَقضمنـي ويمتكنـي إلا عندمـا هرعـت إلـى الصـلاة .

لأول مـرة منـذ أن صليـت منـذ عشـرين سـنة أشـعر براحـة غريبـة تتخلـل جسـدي كلـه ، وتنتشـي لهـا روحـي .

وعندما سجدت ووضعت جبهتي وأنفي على الأرض ، وتضرعت إلى اللّه أن ينجيني من عذابه في الدنيا والآخرة ، ودعوته أن يفرج عني ما أنا فيه ، وأن يُزيح ما يجثم على صَدري من هَلع وفَزع وذُعر، واضطراب في كل شيء .

وعندما انتهيت من الصلاة ، وجدت نَفسي أهرع إلى صَندوقي القَديم ، فَسكبت فوقه «لتر كيروسين» ورميت بعود كبريت فوقه فَارتفعت النيران كسعير جاحم ، واحترق كل ما كان يَربطني بالماضي الدجوجي ، ثم مَهدت غرفتي بِكتب جديدة ومصادر لا غِني لأي إنسان مُسلم عنها ، وكان أول كتاب أولجته غرفتي بعدما احترق كل ما فيها ، هو كتابنا الكريم «القرآن الكريم» وأحسست براحة روحية عندما فتحته لأول مرة في حياتي ، وسَمعت صوتا خافتا يَتهادى إلى أذني من بعيد يُناديني:

ـ هذا هو الصراط المستقيم والبِداية الحقيقة ، فاثبت

فقمت من نَومي مُبتسما أبلل شفتاي بذكر اللّه تعالى :

ـ الحمد للّه .

●●●

النظرة الأولى والأخيرة

عِندما قام قائم الهاجرة وقد انتعل كل شيء ظله رأيتها تجري مسرعة والخوف يتبعثر منها ، تتردد بين الخُطوة والخُطوة بنظرها المُتتابع إلى الوراء تترقب ، وكَأنها فارة من شيء ما ...

وحينها كانت الطرق خاوية لا أثر فيها لمدبة النَمل ودون أن أشعر قَادتني قدماي لأقف أمامها فَترتطم بي ، فَتهوى على الأرض ، ويخر معها الخَوف الذي طما في عينيها عندما رأتني ، فبدت كأنها خَائفة مني أنا ، وليس من شيء ما ...

فَمددت يدي كي أوقفها لكنها أبت وظَلت تحملق فيّ بِعينين غائرتين مَذعورتين ، وظَللت أنظر إليها مُندهشا من أمرها ، فَتلاقت عيناها الهالعتين مع عيناي المتعجبتين ، ودام النظر بَيننا بضع ثَوان .

أيقنت في خلال هذه الثواني أني لستُ عَدوها ، فَربما رأت الطِيبة والشفقة تزخر بهما عيناي فمدت يدها لتلمس يداي اللتين مازالتا مفرودتين نحوها لمست يَدي في خوف ، وتردد .

لاحظت ذلك من رَعشات يَدها المُتتالية ، وأن الخوف يَتولد في اللحظات التي لمست فيها يَدي .

ولكنـي أزلـت شـيئا مـن هـذا الخَـوف عندمـا قَبضـت علـى يَديهـا، وربـت عَليهمـا في شَـفقة ، ثـم أخـذت تَعتـدل في الوقـوف، وتَنتصـب معـي وعَيناهـا مازالتـا تُحدجـان في عَينـاي بشـيء مـن الشـك المُتـأق بالخَـوف .

حاولـت أن أمحـو هـذا الشـك والخَـوف بابتسـامتي وبِيـداي اللتين بَدأتـا تَتسـللان فَتلمسـان خَديهـا الطَريـين النَاعمـين ، وكاد الموقـف أن يَنفلـت مـن بِـين أيدينـا فنكرتنـي وابتعـدت عَنـي ، فتعجبـت وقطعـت صَمتنـا الطويـل قائـلا :

ـ ما الخطب ؟ مَاذا بك ؟

لـم تـرد وظلـت مرتعـة بالصَمـت وأخـذت في الرجـوع القَهقـرى للخلـف ، ثـم دَارت وولـت مُدبـرة وانطلقـت في رَملهـا ...

وظَللـت ثَابتـا في مَكانـي أتبعهـا بِبصـري ولـم تَلتفـت وراءهـا كَمـا كانـت عندمـا رأيتهـا أول مـرة ، وتَسـمرت قدمـاي بـالأرض ، ثـم هـززت رأسـي أسـفا وشَـفقة عليهـا ، وأدرت وجهـي للمسـير ، فـإذا بـي أسـمع صَوتـا خَافتـا مـن خلفـي يقـول لـي :

ـ شكرًا

فالتفت مستغربا فوجدتها تقول ثانية :

ـ شكرًا!

ثم رملت إلى أول مُنعطف ، وبَقيت في مَكاني مُندهشا مما حدث ، ولكني قرضبت سُكوني وثُبوتي وهَرعت خَلفها جَريا كي ألحق بِها ، ولكني وَجدت الطريق خَاويًا ، فَسألت نفسي :

ـ الطريق طويل ، فكيف قطعته بهذه السرعة ؟!

ولكن دهشتي غارت عندما رأيت الطريق مُتشعبا منه طرق ومُنعطفات جانبية فأيقنت أنها غابت في أحد هذه الشوارع الضَيقة المُتشعبة مِن هذا الطريق الأم الطويل ، ولكن أي شَارع سَارت فِيه ؟!

تاه مِني الجواب فقد كانت الفتحات الجانبية في الطريق الطَويل كثيرة ، كما أني لا أعرف أيضا هل انعطفت في شارع من الجانب الأيمن أم من الجانب الأيسر ؟

وقفت مُدة ليست بِالطويلة على أمل أن تَخرج من أحد هذه الطُرقات ، وكنت أعلم أنه أمل ضَعيف ، ولَكني وقَفت فَربما يَتحقق وتَعود .

كُنت أتحرق عَرقا ، وحر يوليو تلفح ناره وجهي ، والأسفلت من تحت قدماي يتلمظ نَارًا ، وكأن جمرًا تَحت حِذائي القديم، فلم أستطع المُكوث واقفا أكثر من هذا ، فانصرفت قبل أن أُصاب بِضربة شمس ، وعدت إلى الطريق الأولى حيثُ التقينا مرة أخرى، ووقفت في مَكانها ثم سرت إلى مأواي .

وصُورتها مازالت عالقة في ذاكرتي ، فلم تُفارق هي ونظراتها الخَائفة خَيالي فكنت أراها في أحلامي ويَقظتي ، وفي كُل شَيء يدور حولي ، حتى كدت أن أصرخ من أعماق فؤادي ، فَلما ضاق بي الأمر بَعدما فَشلت في التَخلص من قُيود مَشهدها ذَهبت إلى نفس الطَريق لعلني أصطدم بِها مَرة أخرى أو أراها .

ولما لَم أجد شيئا اتجهت إلى الطريق الذي اختفت فيه، وابتلعتني شَوارعه الجَانبية المُتفرعة منه على أمل أن أصل إليها، ولكن هذه الشوارع كانت مَفتوحة على شَوارع وطُرقات أخرى فَشعرت أني أسير في مَتاهة أو أدور في دَوامة ، فَرجعت إلى حَيث اصطدمنا .

واستمر بي الأمر على هذه الحال يَوميا بعد خروجي من عملي أذهب إلى نفس مكان ارتطامنا الأول والأخير ، وأقف في هَجير الشمس ، وقيظها علني أراها ، حتى ضَاق بي أهل الطريق، وظَنوني صُعلوكا مُتسكعا أو مُتسولا أو لصا ، ولكني لم آبه بِهم، ولم ألتفت إليهم ، وكأني لم أسمع سِبابهم القاذع لي، فزاد غَيظهم وحنقهم علي فَكادوا لي ، وكادوا أن يَضربونني، فَوجدت نفسي دون أن أشعر أسألهم عن هذه الفتاة ، واصفا لَهم مَلامحها وقَسمات وجهها وجسدها :

ـ الشعر كَمبادي الليل ، والقد غُصن يَتمايل ، قد تَرقرق في وجهها مَاء البهاء وكأنها مُنتقبة بالبدر ، والشَمس تُشبهها بل

تُشرق من عَينيها ، لها عَينان حَشو أجفانهما السحر ، كَأنها أعارت الظَبي جِيدها ، ثغرها يجمع الضريب والضرب ، قد أثمر خَدها التفاح الأحمر ، وصدرها الرمان ، أعلاها كالغصن يهتز، وأسفلها كالدعص مِنهال ، مهيل الرمل في ردفيها ، طيبة ريح الفم، إذا تكلمت تكشف حجاب الزمرد والعقيق و....

أردت أن أكمل وصفي لها ولكني تَوقفت لما رأيت وجوها تُسنمتها الدهشة وأفواها مَفتوحة من الاستغراب، فَتبادلوا النَظرات المُتواليه لبعضهم ، وظنوني مجنونا ، وتركوني وحدي في الشارع في قيظ الحر .

ورأيت أنني أيضا يَجب أن أنصرف لشئوني ، وأهتم بِعملي وأسرتي اللذين قد أهملتهما كثيرًا ، ولكن قبل أن أنصرف، نَظرت نَظرة أخيرة إلى المَكان حيثُ كانت نَظرتنا الأولى والأخيرة، ووجدتها فيه حُلما ماثلا أمامي في المكان ، فَعرفت أنه حلم فَابتسمت وتَركتها ، وانصرفت لِحياتي ..

وجوه غاضبة

رُؤيتي المُتأنية والمُستمرة لِتلك الوجوه لم تَكن عبثا ، بل كَانت هذه الرؤية من روافد الحياة التي نَعيشها ، بل هي الحياة بِعينها، إذ إن مَعالم الحياة واضحة بينة على تِلك الوجوه مُطبوعة بين حَواجبها

ربما تَكون هذه الوجوه لدى البَعض مختلفة ومتناقضة ، لِلتفاوت الشَديد في مَظهرها من وجه لآخر ، إذ إن بَعض هذه الوجوه كان يَنبض بالحياة ، ودماؤها تُترقرق في عُروق وجوههم، وفي شَرايين الجَسد كُله

ولكن لا يَبدو ذلك إلا في مَظهر الوجه السَعيد رغم تقادم العمر ومَر السنين وأيضا هذا لم يَنسوه قط ، بل ظَل في ذَاكرتهم، إذ إن هذا هو الأمر الواقع فَجميعنا نُولد ونَموت في هذه الحياة، وهكذا إلى أن يَبعث الله المَوتى من القبور كانوا يؤمنون بهذه الحقيقة ، وإن تاه تَذكرها في مغافل الحياة والسَعي فيها ومع هذا كانوا يتظاهرون بالسعادة التي يراها الناس .

ولكني كُنت أرى هذه الوجوه كلها بِمنظار واحد ، لا اختلاف ولا تَناقض يَجعلني أُقدم تَفسيرات بلهاء للتظاهر في الواقع ، ومُحاولة

الخروج التي يَسعون إليها دائما من الواقع والتماس أعذار للشعور بالسعادة ، ولَكني كنت أرى الوجه الآخر لهذه العُملة من الناس ، الوجه القديم رغم حداثة السن الوجه النَتن العَفن رُغم نَضارة الشباب المُتوارية وراء شَيخوخة مُفتعلة

كان هذا الوجه يتراى لي من بَعيد ، كنت أرى عُبوسه وقُنوطه، كنت أرى تقاطيب الوجه ، وتَعارجيه التي تَخفق من بعيد كالرايات وكأنها أرض جرداء مُشققة في أمس الحَاجة لقطرات الماء فلا تجدها فتموت عطشا .

إن هذه المرأة لم تَشعر بأي فرحة قط ، إنها وقد ارتدت أربعة عُقود من الزمن رُغما عَنها ، لم تَنفطر شَفتيها عن ابتسامة قط ، وكيف تَبتسم ولم تر البَسمة في الحياة ، ولا فيمن حَولها، كانت النساء من الصَبايا والعَجائز يَسرن ، والعُقود مُدلاة على صُدورهن مُتبخترات ، أما هي فكانت تسير خجلة مدلاة الرأس على الصَدر من الفقر ، رغم أنها تمتلك من الزمن أربعة عقود ولكنها لم تَكن كَعقود النساء ، فَعقودهن كانت من اللؤلؤ ، أما «عديلة» فكانت عُقودها تعاريج والتواءات في الوجه، وقُطوب بين العينين وخفقان رايات الشيب في شَعرها، مع أنها قبل أن تَدخل في العقدين الأخيرين كان شَعرها كسواد الليل الفاحم ، ولكن قد انقشع الليل ، وطَلع الصبح مِن رأسها بعدما اغبر واظلم وجهها الذي كان يَشع بالحياة وبالنضارة .

ولكن كان هَذا قبل أن تَصطدم بِالحياة ، وتَعرفها على حَقيقتها، قَبل أن تَرتدي رِداء العجز ، وتَتدثر بِدثار الضَعف أمام الواقع الذي جَعلها بَين طَريقين إما أن تسير على الصراط المُستقيم في فقر ومَرارة عَيش ، وإما أن تَنحرف وتَتوه في لُجج الرذيلة ، وتَعيش سَعادة زائفة كما رسمها لها كثير من أعوان الشياطين .

ورُغم مُعاناتها لم تندم قط على الطريق الذي اخترته ، ومع هذا لم أكن أعرف ما سبب بؤسها المتزايد ربما تكون طبيعتها هكذا ، فإن الصرخة التي يطلقها المولود عند ولادته ربما تمتد معه عمره كله فهذا وجه .

أما الوجه الآخر فَتكون صَرخته الوحيدة فِي الحياة لَحظة ميلاده فقط ، ويَظهر ذلك في وجهه الذي يتظاهر بنبض الحياة رغم تَقادم السن ، فهذه المرأة رغم قطعها سَبعة عقود إلا أنها مَازالت تَتصابى وتسعى للشباب فَتفلج أسنانها وتَصبغ شعرها الأبيض ، وتَرتدي باروكات مُختلفة الألوان ، والأشكال تَزوجت سبع مرات كعدد عقود عُمرها ، وآخر خَمس زيجات كان الأزواج أصغر منها ، فَبت على فِراشي حائرا أخاطب نَفسي :

ـ كيف تكون عديلة المسكينة أصغر من نَرجس الدمياطي ، فمن يرهما ير العكس أتكون عديلة أصغر من ابنة نَرجس ومع هذا تَبدو أكبر من نَرجس ، ونرجس تبدو وكأنها بنت عَديلة مع أن ابنة نَرجس أكبر من عَديلة .

وكاد عَقلي أن يتلاشى من كَثرة التفكير في هذه الوجوه، فَخرجت أستنشق نسيم الليل البارد مِن البلكونة ، فرأيت عجبا، رأيتها أقصد عَديلة تتعثر وتَخر على الأرض وكأنها طفل يَتعلم المشي ، وتَقف تَسند ظَهرها للجدار ، وتُطلق الزفرات والتنهدات، من التعب والإعياء فأشفقت عَليها ، وتَألمت لأملها ، فما الذي أخرجها في هَذا الليل ؟

ولم أدخل في التَفكير كي لا تَقذفني الوساوس بعيدا ، فأدرت وجهي لأدخل غُرفتي فرأيتها ـ أقصد نَرجسا ـ تَفتح شباك غُرفتها لتتنعش مثلي بِنسيم الليل تَتمغط كأنها انفضت من نَوم عَميق .

فهززت رأسي أسفا ودخلت مسرعًا .

●●●

معصرة عم حمادة

أول ما تقابله عند دخولك شَارع التل على يَدك اليمنى مَعصرة قديمة ، نشأت ووجدتها قَائمة كما هي بِدون تَغيير ، كان والدي قد حَكى لي حِكايات كَثيرة عن شَارع التل بمحتوياته من بين ذلك تلك المعصرة .

وقد نشأ هو الآخر ووجدها قائمة على حالها هذا ، فهي معصرة عتيدة ، تشققت جدارنها وتمايلت ومازالت قائمة ، قذفتها الرطوبة وأملاح الأرض بقذائفها فتخوخت تلك الحيطان، ولولا اللّه ثم دار المعلم «فرج الجزار» ملتصقة بها لتهاوت تلك العمارة الهرمة بما فيها، ومن ذلك تلك المعصرة

ومع هذا ظلت قائمة بقذارتها وحيطانها الملوثة بالطين والمياه، وفتات الحشرات المحفورة في جدرانها من الخارج والداخل.

وعندما تقترب تَرى لافتتها المُعلقة على واجهتها والتي أصبحت بَاهتة ألوانها تقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

صدق الله العظيم

معصرة حمادة الغريب وأولاده للعصير المثلج

ثمن الكوب : ٢ جنيه ونصف

ولكن لِتاريخ المعصرة القديم بَهتت ألوانها وألوان اللافتة ، ويَكاد ما كتب عليها لا يبدو إلا بِتدقيق النظر ، كما أني عِندما دَققت النَظر رأيت على جُدرانها فِي مَدخلها كلاما مَكتوبا لم يَتضح لي إلا عِندما اقتربت ، ودَققت النظر فِيه وقرأته :

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾

اندهشت من هَذا المكتوب داخلاً وخارجًا ، فهاتين الآيتين قد قرأتهما في المصحف الشريف من قبل ، ولكن في أي سور القرآن؟ لا أعرف

فَتحت المُصحف وبَحثت عن مَوضع هاتين الآيتين ، وعِندما عَثرت عليهما علمت أن المقصود بهذه الآيتين الجنة ، فَالشراب هو شَراب الجنة ، والدخول بِسلام هو دخول الجنة .

فَما هذا الذي يَحدث ؟ يستشهد بآيات من القرآن في غير مَوضعها ؟!

أسلوب عَجيب من أساليب جَذب الزبائن إلى السلع ، فَضحكت حتى أفرطت في الضَحك وقُلت لنفسي :

- استعجلنا النعيم في الدنيا

ولكن مَعصرة عم حمادة لم تكن نَعيما بل جحيما ، فهي قَذرة من الخارج والداخل ، حَشرات ضارة ، وروائح كريهة، وأصوات مزعجة ، وصَاحبها هذا من أولاد عم حَمادة رث المَنظر ، قَذر الهيئة، عَفن الرائحة .

ومع هذا الشكل الرث القَذر العفن للمعصرة ولصاحبها إلا أن الشَاربين لعصير عم حَمادة في ازدياد مُستمر ، ولا أعرف ما الذي يَعجبهم في هَذه المعصرة التي ينم مَظهرها عن مَخبرها ؟

ربما حر الصيف دَفعهم لذلك ، ولكن لَيس في هذا مُبرر للإقدام على المَوت بهذه المَعصرة الزاخرة بالذباب ، الطافحة بالباعوض ، المُفعمة بِالنمل والصَراصير .

فقد صارت ملجأ للذباب الفار مِن حر الشَمس الباحث عن الطَعام يَحتمي ويَختبئ فيها ، لا يُفارقها ، ولم لا ؟ وهو يَجد طَعامه وشَرابه من القصب وعصيره دون أدنى عَناء أو تَعب ، حَتى تَكاثر بأعداد رَهيبة ، صَار أسرابا كَالجراد ، وكل يَوم يزداد الذُباب المُهاجر من القُمامات ، حتى ضَاقت بهم المَعصرة فاختبئوا في كل شيء فيها في الأكواب والكؤوس وغير ذلك ، فكان الشخص يرفع كوب العصير إلى فيه وحافته مَحفوفة بالذباب .

والعجيب أن الذُباب لا يَطير أثناء رفع صُبحي للكوب إلى فيه، وكأن الذباب لا يريد مُفارقة العصير ولِسان حاله يقول :

ـ لن أُفارقك حَتى الموت ، في أي مَكان معك حتى ولو كان قَبراً كبطن صبحي أو عَديلة أو حتى شِريفة .

والأعجب من ذلك أنهم لم يحاولوا أن يبعدوا الذباب عن كُوب العصير كأنهم يرون في ذلك نَفعا لهم ، فَزيادة الخير خيرين في رأيهم ، ورأي فرج وذكية وعبد القادر ولطفي ، وغيرهم كَثير .

إنهم لا يُريدون أن يَخسروا ، وقد دَفعوا في الكوب الواحد جُنيهين ونصف الجنيه ، وقد تَحصلوا على هذا المال بِمشقة وتَعب فكيف يُفرطون فيه هكذا ولا يَستفيدون مُنه .

إنهم يَرفضون أن يَخسورا مالهم وطعامهم مع أنهم قد يخسرون ما هو أغلى من ذلك صحتهم .

ولربما يرون أن صحتهم قد ضاعت وولت ، فعلام يُفيد الحذر والاحتياط ؟ فكيف يكون مَع هذا كله هذا الشراب طهوراً؟! أو كيف يكون دخولها سلاماً وأمناً ؟! وهذا لا يكون إلا في الجَنة ، وتلك المَعصرة سَعير وليست جنة .

●●●

نفس لوامة

كَانت بلكونة شقتنا المطلة على الشارع الرئيسي لِبيتنا هي مَلاذي من الفكر والهم والغم ، ومن سَطوة القلق والحيرة وبَواعث الشجن .

كُنت ألجأ إليها عِندما يُحاول الهم خنقي في غرفتي الضيقة، وكنت أقول لِنفسي كثيرًا :

ـ كيف سيكون حالي لو أن غُرفتي كانت بدون هذه البلكونة ؟ أو أن أبي وضعني في غُرفة أخرى ؟ أو أن أبي وأمي رزقوا أولادًا غيري أنا وأختي ؟! كنت أحمد الله كثيرًا على هذه الحُجرة ، فهي كانت ومازالت منفذي الوحيد إلى هذه الحارة الضَيقة وخباياها ، فمنها أطل على جَنبات الحارة ، فمنزلنا العَتيق يأكل جزءا كَبيراً منها ، فَمن خلالها أستطيع أن أرى الكَثير .

كُنت أتوارى كثيرا وراء شيش الباب أو شِيش النَافذة كي أرى مَا أستطيع رؤيته دون أن يراني أحد من أهل الحارة ، فَكان همي هو مَعرفة حقيقة هذه المنطقة وحَقيقة ساكنيها .

هل حَارتنا هذه تشبة حارات نجيب محفوظ التي سَطرها في رواياته وقصصه الكثيرة ، أم أن خَياله كان واسعا فَكان يُبالغ كثيرًا ؟

سـؤال لـم أعـرف جَوابـه ، فَهرعـت إليهـا فـرارًا مـن حـرارة الغُرفـة، وقَتامـة الفِكـر وعِندمـا رأيتهـا واقفـة تبـدو حَائـرة ، وكأنهـا تَنتظـر أحـدًا ، كانـت بـين الفِينـة والأخـرى تَطـل مـن البلكونـة علـى الشَـارع ، عِندمـا رأيتهـا هَكـذا هرولـت لُحجرتـي مسـرعًا .

لـم تكـن قـد رأتنـي ، كَانـت مُنشـغلة بغيـري ، فَحالهـا يشـتفه الحَيـرة والإضطـراب ، تَورايـت وراء شِـيش بـاب البلكونـة لأعـرف أمرهـا .

قَد شـغلتني هـذه المـرأة كثيـرًا ، إذ إنهـا مـن أجمـل نِسـاء الشـارع بـل الحـي كُلـه كُنـت أتلصـص عليهـا دائمـا مـع أنهـا مُتزوجـة رجـلاً كثيـرًا مـا حَسـدته عليهـا ، فمـع فَقـره وقبحـه ودَمامتـه كان تحتـه امـرأة مِثل هـذه، وهـذا لـم يَمنعنـي مـن احترامـه لكـده وعَملـه الـدؤوب، كان يغيـب ليالـي كَثيـرة في عمله ، لا أعـرف مَـاذا يعمـل سـمعت أنـه قـد عمـل في أكثـر مـن عَمـل ، ولـم يكتـب لـه الاسـتقرار في أي مـن هَـذه الأعمـال .

ولكـن احترامـي لـه لـم يُصربنـي عـن مُدوامـة اختـلاس النظـر إلـى زَوجتـه التـي كنـت أراهـا تَبيـت وحيـدة علـى الفـراش ، فَكثيـراً مـا كانـت تتـرك في هـذا الحـر الجاحـم شِـباك حجرتهـا مَفتوحـاً، وبالرغـم مـن وجـود سِـتارة كانـت تعـوق بينـي وبـين رؤيتهـا وهـي نَائمـة بقميـص نومهـا القصيـر تَتقلـب علـى جمـر الفـراش يمينـا ويسـاراً إلا أن الهـواء كان شَـيطاني ، كان يُزيـح السـتارة كَثيـراً فأراهـا .

حَلمت بها كثيرا ، ولكن نداء الله كان يَمنعني من الوقوع في الخَطيئة ، كم من مرة بَكيت في ظلم الليل لعله يُسامحني ، ولكني عِندما كنت أراها أنسى أمري وألتفت إليها .

وعندما التفتُ إليها رأيتها من خلف الشَيش مازالت تَنظر إلى الشارع ، وفجأة رأيتها تَطفر مُسرعة إلى داخل حُجرتها، فخرجت من خلف الشيش ، فرأيت شَخصا يخطر نحو باب العِمارة القديمة حيث شَقتها ، وقد كان الشارع خاويا فقلت لِنفسي :

ـ لقد جاء زَوجها ، سيتمتع ويلتذ الليلة

وعِندما التفت الرجل كاللص ليرى هل يراه من أحد أم لا؟ رَأيت وجهه

لم يَكن زوجها ، كان عَطوة الحلاق ، ولم يَلبث إلى أن رأيته مَعها في الغُرفة يحضنها ، وقد نَسيا من الشوق غَلق الباب والشباك، ثم قضت عليّ بِغلقها بَاب البلكونة وشباك الغرفة في وجهي ، فقلت لنفسي غاضبًا :

ـ بنت الـ .... ، يا لك من عَاهرة مَاكرة !!

ظَللت متسمرًا في مَكاني أتصبب عرقا بعدما زادت حرارتي مِما رأيت ، وشرعت أجفف عرقي بِمنديلي ، ولكني كنت أتحرق

عرقا بِصورة مُفزعة على ما يبدو أصابني برد شديد ، وطما سُعالي، وأنا في موقعي ثابت الأطناب لا أريد الدخول ، تَمنيت أن أراهما ملتصقين مُلتحمين، ولكنها حلأتني من تلك الأمنية .

ازداد نصبي فلم أستطع أن أظل هكذا واقفا فَخررت على أرضية البلكونة ، وأخذت أتكأكأ زاحفا لعلي أبلغ السَرير .

ظللت أسبوعا مريضا، ارتفعت حرارتي حتى وصلت لأربعين، استغفرت الله كثيرًا، كان الموت قَريبا مني ، وكانت مُصيبتي بما كسبت يداي، وبانجرافي نحو شهوتي العَارمة وصور اللذة الشياطنية

وعندما شَفاني الله صليت لله ركعتين شُكرا له، ونشطت لعملي مشيا، فرأيتها تَنظر لعطوة وهو يُبادلها تلك النظرات الشَهوانية الملوثة وهو في دكانه خلف رأس يُوضبها

قُلت لنفسي:

- زانيان يَستحقان الرجم

شُغلت بما رأيت كثيراً ، فأهملت عملي، كان الشيطان يُصورها لي في كل وقت ، وفي كل مَكان في عملي ، في غُرفتي، أثناء أكلي ، في نَومي ، حتى إني صِرت أغتسل يوميا ، حتى شعرت أمي بِذلك، وسألتني:

ـ هل أنت أجرب ؟

تَعجبت وقلت :

ـ لماذا تقولين ذلك ؟

ـ لأنك تَغتسل يوميا ، وكثرة الاستحمام سيبليك

لم أجد ردا سوي أني قلت في امتعاض :

ـ النَظافة من الإيمان يا أمي

واعتقدت أنها سَتنهي حديثها معي ولكني فوجئت بردها علي، قالت :

ـ لكن الشيء إذا زاد عن حَده ينقلب لضده

أخذت مثلها ، وحجلت نحو غُرفتي أرتجها علي أفكر فيما رأيت ، وأقول لنفسي :

ـ لماذا لا أكون أنا مَكان عطوة الخلاق ، وأستمتع أنا وحدي بهذه الأنثى عارمة الشهوة متفجرة الأنوثة .

ولَكني رجعت واستعذت بالله من الشيطان الرجيم ، وأمسكت بالمصحف ، أتلو بَعضا من آيات الذكر الحكيم .

فكرت أن أبتزها وأُهددها بما رأيت لأنال بَعضا منها مقابل سكوتي وإغضاء طرفي عَما رأيت ، وعزمت على ذلك ، ولَكني كل مرة كنت أحلأ لساني وأصربه في اللحظة الأخيرة ، جَاءت لي فرص كثيرة كي أحدثها على انفراد فقد كَانت تأتي في اليوم أكثر من مرة لِتشتري من دكان البقالة الذي يَمتلكه أبي ، وكُنت أقف فيه بَعد انتهاء عملي الحكومي في الفترة المَسائية ، وقد لمست يدها أكثر من مرة بِشهوة .

ثم رأيتها تَتجه نحو السوق بِمفردها وفي يدها حقيبة واسعة فانسللت خلفها ورأيتها فرصة لا تعوض لأحدثها خَارج شارعنا .

وأثناء خُروجي من الشارع الضيق ودخولي شارع السوق المشهور صدمتني سيارة صغيرة من غياب عَقلي فقد كنت تائها في شَهوتي عندما كنت أهرول خلفها دون أن أعي بأي شيء حَولي.

حُملت إلى المستشفى في حالة سيئة ، ولكن مَازال في العمر بقية ، وضع شقي الأسفل في الجبِس ، لم يسلم إلا صدري ورأسي وذِراعي ، والحمد لله على كل شيء .

وجاء أهل مَنطقتنا جميعهم لزيارتي ، وكان أول من جاء لزيارتي عم «صبري» الإسكافي صديقي الحميم ، وعم أحمد رُغم هرمه ، وأولاد عم حَمادة الثلاثة على فترات مُتقاربة ، فكيف

لهم أن يتركوا معصرتهم الأثرية ذات العصير اللذيذ بدون مراقب أو مدير؟ وجاء عم خليفة وبيومي وزوجته التي هَرولت خلفها ، وكانت سبب مُصيبتي ورقدتي هذه ، وعطوة الذي ظل يلقي إليها نظرات شهوانية ، النظرة تلو النظرة أمام عيني ، وزوجها جَالس يلقي نكات في محاولة منه طيبة لإخراجي مِما أنا فيه ، ولكني لم أكن آبه بشيء حولي ، فقد كنت مُعلقا بصري عليهما ، حتى انصرفوا ، وقلت لِنفسي بعدها :

ـ هذا الزنيم الخنزير مازال على غيه وبغيه .

وتَفلت ناحية الباب ، وطويت تلك الصفحة بعد ما حدث لي، فقد أعادت لي تلك الحادثة عقلي ولبي ، وتأكدت من أن اللّه عز وجل مازال يحبني، فقد عصمني من الوقوع في الخَطيئة بتلك السيارة وكدت أن أفقد روحي ، لعل اللّه يريد بي خيرا ، فرفعت بصري في تلك اللحظة إلى السماء ، وقلت بِصوت خافت :

ـ اللهم لك الحمد على كل شيء ، اللهم اغفر لي وتب علي، فلن أعود إلى ذلك الذنب أبدا .

●●●

النار

رأيتهم من بلكونتي وهم يَتسللون في جنح الليل الواحد تُلو الآخر كاللصوص أول من رأيته كان الأسطى «حافظ الأستورجي» رأيته يَنساب إلى بيت الأسطى «عطوة الحلاق» الذي تَسلل كعادته إلى بَيت بيومي الفقير، دون أن يَشعر أحدهما بالآخر ، فألصقت يدي بفمي وقلت لنفسي في دهشة:

ـ لقد رأيت عطوة يتسلل قبل قليل إلى روحية ولكن الأسطى حافظ ؟! كيف ؟! إني أراه في المسجد دائما ، كيف يَرتكب جريمة مثل هذه ؟! وقد عُرف بتقواه وورعه ، أكان مُنافقا يواري فُجوره وفسقه وراء تقواه ، وورعه الظاهر أم ماذا ؟!

لكني تذكرت فَرجعت لنفسي وقلت :

ـ ربما يريد شقة عم خلف صَديقه القاطن في الشقة السفلية لشقة عطوة الحلاق ، ولكن جَميع الشارع يعلم أن عم خلف عند بنته الوحيدة في المَنصورة منذ فترة .

جمشتني الصدمة مما رأيت ، كانت فوقية توصد النافذة ، ورأيته ممددا على السرير ، فَتبدلت دهشتي إلى لعان وسباب وقَذف في هذا المنافق ، لأني كَغيري لم نكن نحسبه هكذا ، أما

عطـوة الحـلاق فمعـروف لـدى الجميـع قَذارتـه ونتانتـه ووسـاخته فَليس غريبًـا عليـه مـا يَفعـل ، ولكـن هـذا الـذي يرتـاد مَسـجدنا الكبيـر دائمـا ولا يـكاد يُفارقـه !!

ولـم يَمـض مـن الوقـت سـوى القليـل وأنـا مُترصـد لـكل حركـة تحـدث في الشـارع مـن بَلكونتـي ، كنـت أجلـس تـارة علـى الأرض وأرفـع رأسـي خِفيـة مُتسـللا أتابـع عـن كَثـب مـا يحـدث وتـارة مـن خلـف شِـيش النافـذة المُطلـة علـى الشـارع .

مَضـى وقـت قليـل وعـادت دَهشـتي مـرة أخـرى عندمـا رأيـت فتحـي بائـع الفاكهـة والخضـروات يتسـلل كاللـص إلـى بيـت «رفاعـة الكهربائـي» وكان رفاعـة في سَـفر للصعيـد يطمئـن علـى أخيـه المريـض الـذي لازم الفِـراش منـذ فتـرة ، وأصبـح في النَـزعات الأخيـرة، يَحتضـر.

رَأيتـه وأنـا أرفـع رأسـي رُويـدًا رُويـدًا ينظـر خلفـه ، يُتابـع هـل في الطريـق أحـد أم لا ؟

ثـم انقـذف داخـل البـاب، تَفهقـت عينـاي مـن الدهشـة والاسـتغراب فَجلسـت مُتربعـا علـى بـلاط البَلكونـة الرطـب ، مُلصقـا ظهـري لِجدارهـا وقلـت لِنفسـي:

ـ المِعلـم فتحـي صديـق رفاعـة ؟! كيـف يَخونـه في زوجتـه ؟ مـاذا يحـدث في هـذه الدنيـا ؟ ومـاذا يحـدث في حَارتنـا النجسـة هـذه ؟!

انجرفت داخل الغرفة أزحف على قَدماي ورجلاي حَتى لا يراني أحد وتَحاملت على نَفسي حتى أمسكت بِالسرير ، وكأن غَاشية غَشيتني وصاعقة زحرتني من هَول تِلك المُفاجأة ، ثم قلت لنفسي ، وأنا أجلس على حَافة السرير وعيناي على باب البَلكونة:

ـ لقد تُبت ، ما الذي دهاني لأن أفعل ذلك وأرجع مرة أخرى للتَجسس والتلصص على الجيران ، لَقد كانت توبتي خالصة ، ينبغي أن أغلق هذا الباب الفَاجر .

وعِندما أقدمت على غلقه رأيته يَتسلل إلى بيت المعلم «فتحي الفكهاني» فَذهلت ووجدت نفسي مسكتا ، لا تلتق شفتاي بذكر ما رأيت ، وبدأ العرق يَغزو جبهتي من جديد ، تَاهت عيناي فيما رأيت حَتى كأني غِبت عن الواقع ، ولكن ما لبثت أن أوبت إلى شُعوري فقلت :

ـ رفاعة الكهربائي يَخون صديقه أيضا ؟

ثم انشقت شفتاي عن ابتسامة ، قد تَذكرت ما يقال على مَنابر الجُمعة كثيرا :

ـ افعل مَا شئت يا ابن آدم كما تدين تدان

وتذكرت قول الشيخ حمزة إمام المسجد :

ـ ما تَفعله في بيت غيرك بالمال يُفعل في بيتك بدون مال

ولم يكن الوضع يُومض بابتسام وضحك ولكني ضَحكت حتى كهكهت ساخراً وقلت :

ـ لقد صارت حارتنا بَيتا للدعارة الخفية ، وكأننا في قرى الفَحشاء والرذيلة

أرتجت الباب ، ورقدت على حافة السرير مَذهولا مما رأيت، ثم توسدت ذراعي أنظر إلى السقف تارة وإلى الباب تارة أخرى ، ثم قُمت واقتربت من الباب بعد دقائق ، ويدي على مِقبضه ، لم أفتحه ، تسمرت قدماي في الأرض ثم اتجهت نحو النافذة ، رفعت الشيش أنظر من خِلاله .

وفَجأة تعالت صيحات واصطراخات كاصطراخات أهل النار، ففتحت النافذة فرأيت نارا عظيمة في بيت رفاعة بعدما اضطرمت في بَيت بيومي ، وفي لمح البصر كان السعير يَعلو مضيئا السماء في بيت فتحي والأسطى عطوة الحلاق، فَهرعت نحو الباب ففتحته، ونظرت أسفل الحارة ، فَوجدت الشارع يضطرم بالخلائق ، ورفعت بَصري فوجدت رفاعة واقفا مع شهيرة عاريين في البلوكنة يصطرخان ، وقد رأى فتحي زَوجته مع رفاعة ، وقد رآه حمودة مع زوجته حيث كانا أيضا في البَكونة يصيحان لينقذهما أحد، لقد رأى كل منهما زَوجته مع صاحبه عارية ، ولكن الوضع ليس مناسبا للعتاب أو الثأر والاصطلام ، فكل يُريد النجاة بحياته.

عطوة الحلاق قفز من الدور الثاني بعدما تركها للنار تلتهمها، ظن أنه سينجو من النار ، وقد نجا منها فعلا ، ولكنه لقى حتفه إثر قَفزته وسالت دماؤه ، تراجعا رفاعة وفتحي عن القفز لما رأيا منظر عَطوة الدموي ، فربضا في مَكانهما يصيحان لِينقذهما أحد، ولكن لم يجرؤ أحد على الاقتراب من تلك الديار، كانت النار في كل جَنباتها وأركانها ، حتى الأبواب الخَارجية أمسكت فيها النار، وبدأت تَأكل فيها ، كانت ناراً حامية ، كانت جزءاً من نار جهنم، قَفز فتحي عندما أمسكت النار بِفتنة فاصطدمت رأسه بوتد حديدي أمام دكان الأسطى «غزي الحداد» فلم يَره ، فنزفت دماؤه ، ومات وهو عار كيوم ولد ، ولم يَجد رفاعة وشهيرة بد من القَفز بعدما أكلت النار بَاب البلكونة ونَجيا بحياتهما بعدما تلقفهما أهل الشارع .

وقفنا عن كَثب ننظر إلى النار وهي تلتهم كل ما يقابلها ، وعندما وصلت عربات المطافئ كانت النار قد أكلت سِت دور من ديار الشارع ، ولكنهم أخمدوها قَبل أن تأتي على الشارع كله ، ولم يَستطيعوا إنقاذ حمدي وفوقية اللذين أطبقت عليهما النيران من كل جانب ، وبدأت تزحف على كل ما يُقابلها تأكله حتى وصلت إليهما ، فلم يَستطيعا الفكاك من بين مخالبها، وهما يصطرخان فيها، وعندما أخمدت النيران استطعنا إخراجهما عِظاما مسودة.

وقمنا بتشيع جَنازة سداسية ، مع اعتراض عنيف من أهل الشارع على دفنهم في مقابر المنطقة ، ولكن الشيخ حمزة بعد

عناء شَديد استطاع إقناعهم بِدفنهم فيها ، ووافق من وافق على مَضض وغضب .

مَات من مات من العصاة ونجا من نجا ، فمن مات مَصيره بيد الله ، وأما من نجا فمنهم من لم يعتبر كَشهيرة التي عملت راقصة وداعرة تستقطب الزبائن كل ليلة حتى صَارت من أشهر راقصات البلد .

أما رَفاعة فقد هداه الله عز وجل ومنّ عليه بالتوبة ، فتاب أمام الجميع ، واتخذ من المَسجد مكانا دائما له .

أما تلك النار الجَاحمة فظلت سرا لم يستطع أحد حتى الآن فك طلاسمه أو شَفراته ، ما سببها ؟ من أشعلها ؟ لا أحد يَعلم

وصارت حِكايتهم مثلا وقصة تُروى للاتعاظ والاعتبار ، بَعدما نجت الحارة من هذه النَار الشرهة ، ولكن لم تَسكن منازلهم من بِعدهم ، وكانوا يمرون عليها صباحا ومساء ، يقفون أمامها يَتأملونها يتعظون ويعتبرون ، وكنت أسمعهم يُتمتمون :

ـ الحمد لله .

●●●

حديقة حيوان

كُنا نظن أن هذه النار ابتلت بها الديار الخَبيثة النجسة فقط، ولكن لم يكن الأمر كذلك ، كَانت النار لعنة مُستعرة باستمرار في حَارتنا ، خلنا أنها نار كأي نار تَتلاشى بمجرد التكالب على إطفائها، ولكننا وجدناها تَستعر تلتهب كل ليلة في دار من دِيار الحارة ، وفي ركن مختلف من أركانها .

وجَدنها بعد ليال من حَادثة نيران الفجرة تَضطرم في عمارة المعلم عطية التابعي التي تَتدرج في الهواء بخمسة أدوار أسفلها قَهوة الشارع المَشهورة ويَخسر المعلم عطية كل شيء ، ويَصير أفقر من عديلة بعدما جاءت النار على كل شيء حتى أمواله التي كان يَحتفظ بها في البيت ابتلعتها النار ، فلم يكن يحب أن يَضع أمواله في أي بنك ، كان يريد رؤيتها أمامها كل لَحظة وبعدما كان من أثرياء المَنطقة صَار من فُقرائها .

كَلبشنا الخوف، وسحفنا الرعب، وسَكنتنا الوحشة، واخترطنا الذعر، التزم الجميع صمت عميق وارتسمت حَسرات وتأوهات على الوجوه التي تسنمتها الغبرة ، واشتفها الفزع ، وصِرنا في حيرة من أمر هذه النار لا نعرف ما هذا الذي يَحدث؟ وإن كانت

عُقوبة للديار الخبيثة ومن فيها فقد ذَهبوا وأخذوا عِقابهم ، أما البَاقون فماذا فعلوا حتى تَستعر في أملاكهم النار هكذا ؟

رُبما شيء لا يلوح لنا ، فَالمعلم عطية كما يبدو لنا لم يكن من الفَجرة ، كان من الأتقياء نراه يُصلي ويزكي ويَجوب في عمل الخير .

تتابعت أسئلة مَمزوجة بالخوف والرهبة في رؤوس وصُدور أهل الشارع كلهم ، قد حيرتنا هذه النار ، ماذا تُريد منا ؟ ومن أين تأتي؟ ومن أضرمَها ؟

تعددت التفسيرات والتأويلات والتَخمينات منهم من يَسير خلف قول بعضهم أن هذه النار وراؤها مردة من الجن صبت غَضبها على أهل الحارة ، ولكني كنت أبطل هذه التَفسيرات كلما تُذاع أمامي ، فقلت لهم على المَلأ :

ـ الجن لا يضر إلا بإذن الله ، وربما يكون هذا منها وربما لا يكون وهذا الاحتمال الأقوى ، فَلماذا كل شيء يَحدث لنا نُرجع سببه إلى الجن والشياطين ؟! لماذا لا نُرجعه إلى أنفسنا نحن ؟!

قال تعالى ﴿مَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾

فَلماذا لا نتعظ ولا نعتبر ، ولماذا كل شيء يُصيبنا نقول سببه جن غضبت علينا أو كذا أو كذا، الجن يَعيشون معنا منذ قديم الزمان، فلماذا صبوا غضبهم الآن علينا ؟ هذا على افتراض أن كَلامكم صحيح

فأكيد هُناك سبب، قد يكون سلطهم الله علينا بِذنوبنا ، فلنعد إلى الله عز وجل، ونتوب إليه كي يرفع عنا هذا البلاء ، فلجوا إلى الله بالدعاء، وألحوا عليه في الدعاء ليرفع عنا هذه النار .

لم يَنصت أحد لقولي ، فتمادوا في جهلهم وعمائهم ، لا يسمعون نصيحة ، ولا يرعون ، لم يَقبلوا قولي وشفنوني بنظرات المقت والبغض ، فلم آبه بهم ، ولكني هززت رأسي حسرة عليهم، وظَللت أدعو الله وحدي ، وظلوا على عمههم وحالهم هذا حتى أمسينا على نار تَشتعل في شقة الأستاذ إبراهيم مدرس الرياضيات، وتليها أخرى في شَقة الأسطى غزي الحداد ، وثالثة في شقة عم «خليفة» في الدور الأرضي من العمارة المقابلة لنا، وعجزنا عن إنقاذه فقد فَحمته النار ، ولم يعد لعم صبري الإسكافي مكان يُمارس فيه عمله.

جاءت النيران على كل شيء ، تُصبحنا وتمسينا في أماكن مختلفة من الحارة حتى أصيب الجميع بالذعر والهلع فَخافوا على حياتهم ، وحياة أسرهم وأولادهم ، بعد أن فَقدت الحارة عشرة من أهلها ، هذا غير المُصابين والمحروقين ، فهرعوا يفرون من الحارة بما يستطيعون حمله من أمتعتهم وأثاثهم .

كنت أرى الوجوه العَابسة المقطبة الكالحة وهي تحمل أمتعتها، ويدفعون أولادهم أمامهم ليخرجوا من هذه الحارة المَلعونة .

هاجر المعلم فَرج وأسرته قبل أن تَشويهم النيران ، هجروا دارهم وساروا لا يعلمون طَريقهم ، وفر المعلم عطية التابعي وغزي الحداد والأستاذ إبراهيم وأولاد عم حَمادة فارين تاركين خَلفهم معصرتهم العتيقة .

كنت أقف في البكونة حسيرًا يحسر نظري عن رؤية تلك الوجوه المُهاجرة الفارة من النار إلى حيث لا يَعلمون ، فروا بأرواحهم قبل أن تفر منهم أرواحهم ، وفرت نَرجس العجوز المتصابية خوفا على حياتها وشبابها المُصطنع .

أما عَديلة فظلت في الحارة لم تتركها ، لأنها تعلم أن لا مأوى لها سوى هذه الحارة .

أصبحت الحَارة خاوية على عروشها ، ومع ذلك لم تنطفئ النار ولم تخمد ، بل كانت تشتد ضراوة ووحشية ، مع اشتداد الفرار منها، حتى فُوجئت بأبي وأمي يَعدان أمتعنا للهروب من الحارة ، لكني لم أبغ ذلك ، فأعلنت رفضي أمامهما فزجرني أبي وقال لي :

ـ إن لم تأت معنا سنرحل من هُنا إلى حيث لا تعلم ، هيا كي نفر بجلدنا ولحومنا قبل أن تشوى في تِلك النار

وصرخ بِي :

ـ هيا

فزعت من قسوته وشدته ، فلم يلن لي قط ، ولم يرطب قلبه، كان جافا ، أما أمي فكانت ذات قلب نقي رقيق كأفئدة الطير دنت مني ، وتلطفت في حَديثها معي وقالت :

ـ يا ولدي نحن نخاف عليك وعلى أنفسنا ، الروح غالية ، والله نهانا أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة ، ونحن في هَلاك مُحقق يا ولدي ، ألا ترى النار كيف فعلت بأهلنا وناسنا ؟ منهم من هلك ومنهم من فر ، ومازال الفرار متتابعا ومُستمرا ، حتى صارت الحارة بدون ناس فكيف نَعيش فيها بمفردنا ؟!

ـ لا ، مازال فيها عم أحمد ، وهذا يكفي بالنسبة لي ، لو رحل لَفكرت في الرحيل ، أما إنه لم يرحل إذن سيكون هُناك سبيل للنجاة بإذن الله

فجمشني أبي بقوله اللاذع :

ـ هذا ليس وقتا للفلسفة الحمقاء التي أنهكتنا بها تعبا، ومللنا بسماعها منك ليل نهار ، أنا وأمك سَنرحل من هنا ، إذا أردت الرحيل معنا فهيا لم يعد أمامنا وقت ، فالنار على وشك أن تُضطرم ولا نعرف أين سيكون عشاؤها الليلة ، ولم يعد في الحارة

بيت قائم على أصوله سوى بَيتنا هذا وربما يَكون فريسة للنار هذه الليلة .

أسففت النظر إليهما وحَملقت في وجهيهما ، وقد قبضا على أذني حَقيبة كبيرة بعد ما حملا أمتعتنا في سَيارة نصف نقل تَتوسط الحارة ، فتركتهما واقفين وطَفرت أقفز من فوق درج السلم ، أهرول في الحارة حتى بَيت عم أحمد سمعت سُعاله الشديد ترتجف له جدران الديار البَالية ، فدخلت عليه مذعورًا من صوت سُعاله القارع ، فوجدته ممدا على سريره ، وسألته عن حاله وصحته ثم هممت بالخروج لآتي بطبيب فَجذبني من يدي وطلب مني الجلوس ، فَجلست عند قدميه على السرير ، ثم قال لي بصوت مخنوق :

– أنا أعرف لماذا أتيتني ؟ والدك كان هنا يُودعني ، اذهب مع أبيك وأمك يا ولدي ، لم تَعد الحارة مكانا للسكنى ، لم تعد صَالحة للحياة والمعيشة فيها ، ألا تراها قد صَارت خرابة ، قد دمرت وهجرها أهلها ، وفروا بحياتهم ، فر أنت أيضا واذهب مع والديك ، حتى تُحقق ما تتمناه إن شاء الله ، أنا أعرف أن طموحك واسع ، وهذه الحارة البالية لا تَصلح لتحقيقها ، اذهب واسع في الخير دائما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾

– ولكن كيف أتركك وأهرب ؟

– هذا ليس هُروبا لك ، وأنا صِرت هرما فانيا يَنتظر الموت بين الفينة والأخرى

– ولكني لن أتركك ، إما أن أظل مَعك أو تأتي معنا

أشار إلي بِيده بصعوبة وقال :

ـ يا عبد الله أنصت إلي جيدا يا ابني وعِ قولي ، قلت لك أنا صَرت هرما مريضا لا أستطيع أن أرحل مَعكم ، وأنت لا تستطيع أن تَبقى معي ، أيامي في الدنيا مَعدودة أما أنت فَمازال أمامك عُمر مديد إن شاء الله ، كما أني لا أستطيع أن أفارق حَارتي التي ولدت فيها ، وفيها أدفن ، ذِكرياتي كلها هنا في هذه الحارة فَكيف إذاً أهرب وأتركها ؟! اذهب يَا ولدي ، فالله معي ومعكم ولا تدع الوساوس والعاطفة الزائدة تَأخذك بعيدا، فَأنت أملنا جميعا ، وإن شاء الله سَيكون لك شأن كَبير ، وربما يأتي اليوم الذي تؤوب فيه مرة أخرى إلى حارتك لِتعمرها وتُنقذها من فَقرها ، وأنا أعرف أنك لن تَبخل عليها .

ظللت أحدق فيه والدموع تَغسل خدي ، وتنساب إلى فمي، فشعرت بمراراتها وشعرت بدفء حُضنه وأنا بين ذراعيه، فأطلت احتضانه ، فربما يَكون آخر عهدي به ، ثم تَركته بعدما قبلت يديه، وخرجت أرقل كَالمتثاقل فَوجدت أبواي أمام السيارة ينتظراني .

وقبل أن أعتلي السيارة التفت لألقي النَظرات الأخيرة على شَارعنا وحارتنا العتيقة وديارها المتراكبة المتراصة ، تَصفحت تلك الديار الخَاوية والعمائر الخربة حتى توقف بعيناي على بيت «حمودة» الذي لم يُصب بسوء ، مع أن ما حوله وما خلفه قد أكلته ودمرته النيران ، ثم خَطرت ببصري يمينا فوجدت عديلة جالسة أمام عشتها الخشبية القديمة ، ثم أسففت النظر إلى بيتنا الشَامخ الثابت كالجبل ، وإلى بلكونة غُرفتي ثم رفعت رجلي كي أمتطي تلك السيارة فَتذكرت شيئا، فأنزلتها وهرولت مُسرعا إلى شقتنا ، وفتحت درج مكتبي وأخرجت أوراقي التي فيها ديباجة أحلامي وتاريخ الشارع وناسه التي تلقيته من أفواه الكثيرين من قدامى أهله الذين عمروا دهرا ، وفيها فوق ذلك عصارة فكري وبعض كِتاباتي عن الحارة وأهلها وأحاديثهم وأخبارهم

حينما ركبت تذكرت أختي فقلت لأبي :

ـ ألن نرى فَاطمة قبل رحيلنا ؟

ـ لو ذهبنا إليها سنتأخر ، فالطريق إليها طويل ، وهي سعيدة مع زوجها ، فلا نكدر حياتها ، ونقلقها بشأننا ، عندما نستقر سوف نعلمها بكل شيء .

انطلقت السيارة تجر عَجلاتها وتجر معها أحلامي ، خرجت وخرجت معها ذكرياتي العزيزة ، وعِندما وقعت عيني على آخر شيء في حارتنا قبل أن نتركها ، وهما النخلتان الباسقتان في مُقدمة الشارع المناطحتان للغمام في عزة وأنفة .

عِندما لمحت جَريدها وبلحها هفت على قلبي وروحي روائح من زمن الصبا والطفولة ، عِندما كنت ألعب وألهو مع أصدقائي في الحارة ونحن صبية كالفراخ ، شممت روائحهم تنبعث من بين النخلتين ، وبالذات «ليلى» التي في قلبي لها مَشاعر غير مشاعري تجاه بقية «شلة الأصحاب» مشاعر لم أخفيها عنها، صَارحتها بكل ما يجول ويجوب قلبي أول مرة بين تلك النخلتين، والتي شهدتا لقاءات كثيرة لنا حتى كبرنا وتفرقنا ، وكان فراقنا أيضا بينهما عندما أخبرتني بأمر ذلك العريس الثري المتقدم لخطبتها والزواج منها ، حينها لم أنبس بكلمة، وتزوجت وسافرت مع زوجها ، وانقطعت أخبارها عني وعن جميع أهل الحارة بعدما ترك أهلها الشارع كله ، منذ سنوات مضت ، تَذكرت كل ذلك ، وذكريات عديدة في ثوان عابرة ، مَرت في خاطري أثناء رَحيلنا .

جاشت الأحزان في صدري وسبلت عيناي دُموعا تفاقمت عندما غادرنا آخر أركانها لما مررنا على مَعصرة عم حمادة ، فالتفت خلفي لأرمقها الرمقة الأخيرة ، ثم قُلت لنفسي :

ـ ربما أعود في يوم يعلمه الله .

وقد عدت في يوم قَيظ بعد مرور ثلاثين سنة ، وعندما ترجلت من سيارتي الفخمة وخلعت نَظارتي الشمسية ذهلت مِما رأيت ، فقد رأيت مباني حديثة أبراج شاهقة في مَدخل الحارة ، وحدائق ذات بهجة وجمال وسيارت تملأ أفق الطريق ، وعندما انسدرت بِقدماي أخطو خطوات ، وجدت فُندقا عليه من حلل الأبهة والعظمة الشيء الذي يَعجز عن وصفه الواصفون ، لم آبه لكل تلك العظمة أو لتك الفخامة ما أربكني وحيرني أن في مكان هذا الفندق كانت ترقد مَعصرة عم حمادة بذبابها ونَملها وحَشراتها .

ولم تكن تلك آخر المفاجآت فقد رأيت ما هو أعظم وأدهى، رأيت حَديقة واسعة تقوم مقام حارتنا كاملة ، لم تَكن حديقة للتنزه ، لو كانت لكان الأمر أهون ، ولكنها كانت حَديقة حيوان كبيرة أخذت معظم دِيار أهل الحارة ، اقتربت منها أتابع لافتتها بِنظري، ثم اشتريت تذكرة لِدخولها ، وحينا هممت بالدخول شعرت بيد تَقرع كتفي من الخلف بضعف وخور وصوت يقول :

ـ «حاجة لله»

التفت في سكون ، وهي تُكمل كلامها :

– أنا سيدة مَريضة وعجوز ، ولا يعولني أحد ، أعطني شيئا للّه

فانثنيت أتأملها جيدا ، سيدة عجوز بِعصا خشبية تستند عليها ، ووجه قد حفرت فيه سنون طوال ، هذا الوجه الغاص بالتَجاعيد والالتواءات والتقعرات والندوب كأني أعرفه ، أخذت أمحص وجهها متأملا حتى عرفتها ، ذهلت وافترت شفتاي عن ابتسامة حزينة ، ولما طال تحديقي في وجهها ، قالت بعينين لا تكاد تَريان إلا بصعوبة :

– أعطني يا ابني شيئا للّه

– ألا تعرفيني ؟! أنا عبد اللّه ، يَاست عديلة

– عبد اللّه ! عبد اللّه من ؟

– عبد اللّه بن إبراهيم البقال ، كان لنا بيت ومحل بقالة هنا مُنذ سنين طوال ، ألا تتذكريني ؟

أخذت تُحدج في ببصرها وتسف النظر بشدة محاولة ضعيفة منها لمعرفتي ولكن باءت محاولتها بالفشل فقالت :

ـ اعذرني يا ابني ، لم أعد أتذكر شيئا

أمسكت يَدها أجلسها ، حتى جلست على حجر صَغير ، ووضعت عصاها عن يمينها ثم أخرجت من حافظتي مبلغا كبيرًا من المال يربو على الألف جنيه ، ورميته في حِجرها ، أخذت تحدق في المال تارة ، وترفع نظرها إلي تارة أخرى والدموع تبلل خَديها الخشنين ، ونظرت إلي بعين مُبتسمة .

ثم تَركتها ودلفت نحو الحديقة أشاهد تلك الحيوانات التي قَطنت حارتنا القديمة شاهدت القرود والتَماسيح والثعابين والأسود والنمور والفئران والأرانب والقطط والكلاب ، خَنقني الذهول مما رأيت ، وملكني الوجوم ، وتوسدني الهم ، وافترشني الغم ، فَخطوت بخطى سريعة كي أخرج من هذه الحديقة التي تَكاد تَضيق عليّ ككفة حابل أو أشد تقاربا ، وقبل أن أضع قدمي على عتبة بَوابتها ، التفت ورائي ، وشفنتها بنظرات حسرة وألم ثم قلت لنفسي بعدما جالت حَبات من الدمع في عيني :

ـ لم يعد هنا أي أثر أو أي شيء يدل على حَارتنا ، حتى الوجوه التي رأيتها لم أعرفهم ، زال كل جميل عن حَارتنا ، تركها الإنسان وقطنها الحيوان

ثم خرجت مِنها أتثاقل في سَيري متذكرًا قول عم أحمد :

ـ هذه النار عقاب من الله عز وجل ، يا ولدي ، ولا تسمع لكلام الجهال من أنها من فِعل الجن ، نحن كلنا السبب في أن

يصب الله علينا عقابه ، كل الحارة كَانت تعلم بما يحدث فيها من رذيلة وخباثة وقذارة ووساخة ، ولكننا غضضنا الطرف عن ذلك، ولم ننه عن المنكر ولو حَتى بالقلب ، ولم نأخذ موقفا إيجابيا ونمنع ما يَحدث ، فصرنا أشبه بالحيوانات

حركت رأسي ثم قلت بصوت مَسموع :

ـ حقا ، لقد كان كلامك صحيحا يا عم أحمد ، فَنحن أشبه بحديقة حيوان .

●●●

الهامش

لم ينفصم شعوره عن ذاته إلا عندما سار في هذا الطريق، ولكن أي شيء جد وطرأ ؟!

فهذا الطريق هو نَفس الطريق الذي يَسير فيه دائما ، إنه الطريق الأوحد الذي يَختصر المسافة لموضعه .

لم ينتبه إلا عندما خَطى أكثر من منتصفه ، فتسمرت قدماه ونشب عينيه تجاه رأس الطريق ليرى منتهاه ، فشخص بصره وكأنه يرى منتهى الطريق بدايته

إنه الطريق الذي يَسير فيه دائما ، لكأنه يرى للطريق بداية من جديد !!

ظل شَاخصا تدور عينيه في رأسه متأملاً مُقاطع الطريق ومُنعطفاته

لم يجد سبيلاً للخروج سوى أن يُفكر ، فأخذ يَستعيد أشرطة تفكيره ومداخل ذاكرته كي يَهتدي .

ولكن أحلامه كانت تتسرب منه ، وتفكيره يُطوى ، فلم يعد يتذكر من الحاضر شيئا ، أصبح ما يَحياه صفحة بيضاء موقوفة في عقله ، فأيقن بالتيه واستقر على أنه قد ضَل .

فأي منعطف يسلك ؟

وأي طريق يخطر فيه ؟

فجلس مُتربعا يندب ضلاله فتتسل دموعه من بين مآقيه رويدا رويدا ، ويداه قد طوقت رأسه محاولا التذكر ، ولكن تفكيره قد شل إلا أن شيئا قد هصره ، هب من أجله واقفا ، وجعل يَتلفت حول نفسه كالمهذري والطريق خاوية على عروشها، وكأن شَيطانا يتخبطه من المس

إنه يتذكر أشياء وأحداث مر عليها أكثر من خَمسة وعشرين عاما حيث كان مع صديقه الوحيد الذي لا يعرف غيره ولم يكن يُفارقه إلا في المضطجع وكان من أمرهما أنهما اتفقا على الخروج في رحلة ، والجملة الأخيرة التي قالها له صَديقه مازالت ترن في أذنيه :

ـ لا تنس مِيعادنا يا ناصر

إن ما بداخله يكاد يصرخ ، فصار يحدث نفسه :

-كيف هذا ؟ ! أتذكر أحداثا واهية واهنة مر عليها دهر ، ولا أتذكر أحداثا مرت عليها لَحظات معدودة ؟!

لماذا سرت في هذا الطريق ؟

لكني سرت فيه كثيرًا ، ولكني آراه وكأني أسلكه لأول مرة

أهـذا يصـح في الحيـاة ؟ أحقيقـة هـذا أم حلـم ؟ لا ، ليـس حقيقـة، إننـي أحلـم ، هـذا كَابـوس فظيـع لابـد أن أفيـق منـه .

وأخـذ يَتحسـس جسـده فأيقـن أنـه لا يحلـم ، فأخـذ يـدور حـول نفسـه كالمجنـون ، وهـو يصلـق :

ـ لا ، لا ، هـذا كابـوس بشـع ، هـذا ليـس حقيقـة ، وأنـا لسـت مَجنونـا أو مهذريـا

وأخـذت صرخاتـه تـدوي في جنبـات الطريـق، وأخـذت صراخاتـه تطمو حتى خر على الأرض جاثيا ، وعيناه بارزتان ، ورأسـه شَـاخص ثابت ، ثم لـم يلبـث أن انفـك ثباتـه إلـى هـزات خفيفـة ، تلاهـا تَحريك شـفتيه تنبـس عـن ابتسـامات سـاخرة تحولـت لقهقهـات وكهكهـات ، وأخـذ عَقلـه ينفتـل منـه ولا يحـرك سـاكنا سـوى ضَحكاتـه الملعونـة، فَيركـض إلـى أقـرب مُنعطـف فَتدهسـه سـيارة مسـرعة فتتبعثـر أحلامـه علـى الأرض .

●●●

سر المذبوح

لم يَتمالك نفسه من الحنق عليه ، والمقت له هو ومن تَبقى من أهله المُهانين منه المُصابين بشره المُقصلين بخسته ونذالته كَغيرهم من أهل البلد الضعاف ممن أذاقهم الذل والهوان ، وخرب بيوتهم ، وشرد أسرهم وأفرادهم ، ورمّل نِساءهم ، ويتَّم أطفالهم بِانطفاء شمعتهم وانهداد الجبل الراسخ مِمن يكلؤهم ويرعاهم من آبائهم الذين لم يتحملوا الحبس والذل والفقر وضَعف الحال بعدما سامهم سوء العذاب هذا البغيض المُرابي غالب حليم .

كان شَيطانا مريدًا رجيمًا ، حقه أن يؤخذ بناصيته ويقطع أو يصلب أو يحرق بالنار على ملأ من العالم ليتعظ غيره ممن يَستغل فقر الناس وضعفهم وعوزهم وحَاجتهم لإعالة أولادهم وأسرهم وسد جوعهم وإطفاء نار ظمئهم في أضيق الحُدود ، كانوا يُريدون الكِفاف فقط

لم يُدرك ذلك هذا الجشع واستغل ما هم فيه ، فملك رقابهم ونَواصيهم بأمواله التي يُخرجها لمن يطلبها ويأخذها أضعافا مضاعفة ، الألف بألفين ولو تأخر عن السداد تتضاعف الفائدة ، ومن يعجز عن الدفع يستولي على بيته، أو ما يملك .

فملك الكثير ، وخرب بيوت جلهم ، ومات أكثر من عشرة من خيرة رجال القرية بسببه «رأفت مندور وعزيز الوصيف وجلال فهمي ، وعمرو السيد ، وإبراهيم غنيم ..... وغيرهم» .

حتى من ينتمي له لم يسلم من شره ، كـ «زكي حليم» الذي انتحر شنقا في غُرفته لما ضَاقت به السبل ، وغَصت نفسه بالهموم، وَركضت عنه الحيل ، وصار أليف وحشة بين التَفكير في الحبس وضَياع أسرته ، وبين ترك ما يملك له .

وفي كلتا الحَالتين ستضيع أسرته فَقطع تلك الوساوس والأفكار التي كلحبته وخنقته وفَتقته بشنق نفسه ليلقى نفس المصير الذي لاقاه غيره ، وإن لم يَنتحر أحد سواه ، ولكن المُحصلة نهائية هي الهلاك إما بالجلطة أو بالسكتة القلبية أو بغيبوبة السكر التي لا يفيق منها إلا على القبر .

لم تجد معه نصيحة قسيس أو موعظة شيخ أو العقاب الذي حل به بهلاك ابنه وزوجته بانقلاب سيارتهما أثناء عودتهما من الإسكندرية بَعد قضاء صيف ممتع ، بَل ازداد شراسة وفتكا بالغلابة والمساكين وأهل الحاجة وكأنه يَثأر منهم لِخبث طويته، ودناءة نفسه ، وسواد قلبه الحَالك فلم يكن «غالب حليم» من ذوي الأرواح الطيبة التي سَتبشر بالروح والريحان ورب راض غير غضبان ، سيكون من أولئك ذوي الأرواح الخبيثة العَفنة التي سُيقال

لهـا : «اخرجـي أيتهـا النفـس الخبيثـة كانـت في الجسـد الخبيـث ، اخرجـي ذَميمـة وأبشـري بجحيـم وغَسـاق وآخـر مـن شـكله أزواج»

لـم يرتـق هـذه المَنزلـة الخبيثـة وتلـك المرتبـة النَتنـة مـن فـراغ ، فقـد افتـرى علـى النـاس وعـدا عَليهـم وطغـا وتَجـاوز جميـع حـدوده.

بـل تعـدى هـذا الأمـر إلـى أن افتـرى علـى اللّه ، عِندمـا جاءتـه «فريـدة عمـار» لتشـفع لوالدهـا كـي يُؤخـره فتـرة حتـى يجمـع لـه مالـه أو يتصـرف ببيـع شـيء مـن الحطـام الـذي يملكـه ، زعفهـا بعنيـين مبرقتـين، وسـحلها بنظـرات سـاحقة، فوقـف مسـعورا ينهرهـا ويمطرهـا بِوابـل مـن الـكلام البـذيء والسـباب، لاعنـا وجههـا البـريء الـذي طالمـا اشـتهاه يلثـم شـفتيها، ويرتشـف مـن ضريبـه .

لـم تكـن ثَورتـه هـذه عليهـا أمـام هـذا المـلأ مـن النـاس وبالـذات منافقيـه والمتزلفـين لديـه لـم تكـن مـن أجـل أنهـا رَدت عليـه لمـا رفـض طلبهـا بأنـه لا يعـرف اللّه وأنـه ظالـم ، وإنمـا مـن أجـل نَبذهـا لـه ورفضهـا إيـاه لمـا رفضـت مرادوتـه لهـا عـن نفسـها مـن أجـل أن يؤخـر الديـن عـن والدهـا أو ربمـا يُسـقطه إن هـي خضعـت لـه ورضخـت لرغباتـه الدنيئـة .

ولكـن فريـدة كانـت أشـجع مِنهـم جميعـاً ، كانـت أجـرأ وأقـوى فتـاة في البلـد كلهـا ، لمـا رفضـت بِقسـوة عندمـا صفعتـه علـى وجهـه

أمام الناس في سوق البلدة الصغيرة لما تَحرش بها على مرأى من الناس ، وهي تشتري بعض مُستلزمات البيت ، التصق بها من الخلف يسأل عن أسعار الخيار لأن النِساء تعشقه .

لم يكن يَتوقع منها أن تلتفت لما أحست بذكره يَنحشر بين فلقتيها المستديرتين وهوت بيدها على خده تصفعه صفعة ارتجس لها السُوق وأهله خوفا من هَولها وفظاعة صوتها .

أحس بلفح الصَفعة وبنفحها حتى احمر خده الأيمن ، حمج بِبصره نحوها ، ومنع رجاله بيديه أن يَهجموا عليها لما تأهبوا لذلك مُعلنين الصخب والشغب والصياح والنباح ليدافعوا عن سَيدهم ويعيدوا إليه بعض ماء وجهه الذي سحفته فريدة بيدها كما ينزع الشَعر عن الجلد ، لم تطل نظرته لها ، فدنقس عينيه ، ثم تَبصرها وبرق عينيه وقال قبل أن يرقل في سيره معلنا الرحيل هو وحاشيته :

ـ ستدفعين ثمن هذه الضربة غاليًا يا فريدة أنت ومن معك، ستباعون جميعا في السوق ، ليس في هذا السوق وإنما في سوق النِخاسة .

لم يَتحرك أحد من أهل السوق ومن أهل البلدة المشترين لينقذ هذه الفتاة أو يدافع عنها وعن شَرفها الذي هو شرفهم

جميعا ، ولكن شرفهم قد ضاع منذ أمد من وقت أن سلموا رقبتهم لِهذا المنبوذ .

تمنى «عبد الملك» حينها أن يقف معها في وجه هذا المرابي، ولكنه كان مُكبلا هو الآخر ، إن تحداه وعاداه سَيدمر حياته وحياة أسرته وأبيه المريض الذي يَحتاج علاجه أموالا طائلة بعدما أصيب بالفشل الكلوي ويحتاج كل يومين أن يغسل ، وهذا يكلفه أموالاً باهظة وإذا انتظر دوره في مُستشفيات الدولة ربما مات والده قبل أن يَصل إلى دوره في الغَسيل .

فتحمل على مضض وكتم في نفسه وعاونها بقلبه ودعا الله عز وجل أن يخلص الناس مِن شر هذا الوقح الدنيء الدميم سيء الخلق والخلق ، وانتظر كما يَنتظر الكثير أن يأتي اليوم الذي يتخلصون فيه من هذا الظَالم الطاغي . حتى جاء ملامح ذلك اليوم وتَباشيره يوم أن افترى هذا الكلب على الله عز وجل لما انتصب واقفا لاعنا فَريدة وأهلها على مرأى من أهل البلد في هذا الوقت ، مخبرًا إياها بكفره أن الله لو نزل وشفع من أجل أن يُسقط عنهم دينهم أو أن يؤجله أو يؤخره مَا فعل ، كانت كلماته كالصواعق المرسلة على آذانهم والأمواج العاتية المُتتابعة على رؤوسهم ، ومع ذلك غض كثير منهم الطرف وانحنوا برؤوسهم وأخفضوها في الأرض ، إلا عبد الملك الذي كان عائدا مع والده

مـن المُستشـفى وسـمع هـذا الـكلام فاشـرأب برأسـه ونَشـب عينيـه وقـال :

ـ ماذا قلت يا غالب ؟

التفت إليه يَستشفه وقال مستهزءا به :

ـ عبـد الملـك بـن الحـافي المريـض يَتكلـم ، أقـول مـا سـمعته ، وابتعـد عـن هنـا الآن قبـل أن تُسـحق .

اقترب عبد الملك وقد فَار دمه وقد أمسك والده بذراعه وقال :

ـ لا تذهب إليه يا ابني الشيطان يُلاعبه الآن ، هو ليس في وعيه .

فتوقف عبد الملك عن المسير وقال :

ـ لك يوم يا غالب سَيقتص منك .

ضحك وقال ساخرًا :

ـ متـى هـذا اليـوم ؟ تعـال الآن وتعالـوا جميعـا اقتصـوا منِـي ، أنـا أمامكم الآن يـا أولاد الزوانـي حياتكم كلهـا في يدي ورقابكم بـين أصابعي ، وسَـوف تُسـجنون جميكم أو تسـحقون ، أموالي بين أيديكم تَتنعمـون بهـا ، وترفعـون أصواتكـم علـي وتهددوننـي ، أنتـم لا يفعـل بكـم معـروف أبـدا ، انتظـروا عِقابـي وعذابـي مـن الغـد سـتدفعون أموالكـم وإمـا تَبيعـون بيوتكـم وأملاككـم ونسـاءكم أيضـا لـي

سمعوا هذه الكلمة وأنصت أكثرهم ولكن عبد الملك وأربعة آخرون رفضوا ما قال وصرخوا في وجهه يَتقدمهم عبد الملك الذي انفلت من بين ذراع والده وتَحرك نحوه ، وأمسك بتلابيبه وخلفه الأربعة الآخرون ، بهر غالب ما يرى وتفهقت عيناه ، واقتمه الغضب ، واحتفه الحنق صَائحا به أن يدعه ، وينزل يديه سابا دين أمه ، لم يَتمالك عبد الملك نفسه ، وارتفعت يده اليمنى ولطمه على وجهه حتى رَشحت أنفه بالدم أمام رجاله الذين تجمعوا حولهما يريدون ضرب عبد الملك ، لكن أهل البلد هرعوا نَحوهم يمنعونهم من ذلك ، ويفرقون بين عبد الملك وغالب مُنتزعينه من فوق رقبته التي طوقها عبد الملك بِكلتا ذراعيه كالثور الهائج ، انتزعوه وفَرقوا بينهما وتركوا غالب بين رجاله ، وتفرقوا جَميعا من حوله ، وأدخلوا عبد الملك بَيته ووالده خلفه ، وجَسده يرتعد من الغضب ، وعَيناه تمطر من حوله أوبلة من النيران .

حاولوا تهدئته بِكلامهم المثبط المحبط الضعيف بأنه فتح على نَفسه باب شر وأنه لا طاقة له بِغالب ومن معه ، ولكنه لم يآبه بكلامهم ، ونَبذهم من بيته وتوضأ ، ودخل حُجرته يرتشف رشفات من القرآن الكريم ، فالقرآن كان ومازال داوءه من كل داء، وشِفاء لما في صَدره وقلبه وعقله وجَسده كله

مر به الوقت دون أن يَشعر وهو سابح في التلاوة ، حتى وجد نفسه قد تلا نصف القرآن ، ولم يسأم أو يمل ، حتى لعب الكرى برأسه وسقاه من خمره فتمايلت رأسه ، فاتكأ بجنبه قليلا ثم هب مُنتفضا كالعصفور المبلول

وتوضأ وصلى ثماني ركعات قيام الليل ، ثم جلس يستغفر الله ويدعو على هذا المرابي الظَالم ، وهو يقاوم تحرش النعاس به بما أوتي من قوة ، ولكن النعاس كان أقوى فلا يُعاند ، فغلبه فغفا ، ورأى هذا الظالم غالبا ماسكا سيفا حاسما يريد مُقاصعته ، أخذ يرمل نحوه وهو أعزل بدون سلاح يدافع به عن نفسه ، فَتقهقر إلى الخلف والفزغ يمحشه، ويَغص فيه حتى التصق بالجدار

اقترب مِنه رافعا السيف ، فصرخ في وجهه :

ـ لا تقتلني ، لا تقتلني ، أرجوك

لكنه كان أصم لم يَسمع له ، وقرب سيفه من رقبته ، حتى أحس بقرب الموت منه فبعد ثوان ستتطاير رقبته ، ويَنفجر بركان من الدم يغلف هذا المكان ، فارتعدت مفاصله فقد أيقن بالموت وظن أن لا ملجأ من هذا المصير في تلك اللحظة ، لكن حدث مَا لم يخطر في باله أو يجوب في فكره أو يُعانق حتى خياله ، ألقي إليه سيف حاد لامع متبوعا بهاتف :

ـ اقتله ، اقتله ، اقتل عدو الله

أمسك السيف البتار الذي وضع في يده دُون أن يشعر ، وهو يومض بالموت والهاتف يخن في أذنيه يرعش قلبه ويرجف جسده كله:

ـ اقتله ، اقتل هذا الظَالم الفاجر الذي حارب الله وافترى عليه

كان مَزموعا ، لا يدري ماذا يفعل بالسيف ؟ كيف يَقتل ؟ وهو لم يقتل شيئا من قبل

ولكن ذلك الهَاتف الغامض كان قويا ، هز جميع أركان جسده، وصلب بنيانه صارخا في روحه بالثبات والتنفيذ :

ـ اقتله ، لا تَقف هكذا مزموعا خائفا ، أنت في قمة صحوك ويقظتك ، اقتله ولا تتردد ،

تَجمعت قواه من كل صوب ، وتَصلب واشتد بنيانه بعدما كاد أن يخر ، وشفنه في مقت شديد وبغض عظيم ، وعندما رأى السيف مرفوعا عليه ، حمج عينيه ، وحَدجه ببصره ، وذرا سيفه من يده ، وخر جاثيا على ركبتيه ، يستصفحه ، وهمعت عيناه بالدمع يَرجوه بدمعه ألا يَقتله كما رجاه ، ولكنه لم يلتفت إلى بكائه ، ولم يَحفل بضعفه وخضوعه أمامه كالذليل .

وأمر سَيفه على رقبته فذعط في الحال ، وصحا من غفوته على صراخ قارع يصم الآذان ينبعث من الشارع ، فقام مَفزوعا نظر في يده فرأى قطرات من الدم عليهما ، احتفت الدهشة لون وجهه واشتفه الوجوم ووقف يحدج في قطرات الدم التي في كفه وعلى ملابسه ، ثم انتبه للصراخ الذي أخذ يفقع حتى أحس أنه سَيفقد سمعه ، فهملج مُسرعا نحوه ليكتشف أمره ...

عرف أن الصراخ ينسل من بيت المرابي غالب لما رأى زمرة من الناس أمام داره ، فَطما التعجب والاستغراب في عينيه ، وحث الخُطى نحو تلك الدار التي تَتسنمها الغبرات ، دخلها فوجدها قد طفحت بزمر الناس أكثر من الخارج ، وزمع من وقوفهم ثابتين في حين ينبعث صراخ من تحت أقدامهم وكأنهم قد قَبضوا .

رآهم صامتين مسكتين ينظرون أسفل منهم والوجوم يغلف وجوههم ، اخترق تجمعهم ، حتى وصل إلى الصارخات النائحات، أهله وذويه ونِساء بيته ، انحنى فأزاح رأس إحداهن كي يرى ما الأمر ؟

فرأى «غالب حليم» مضجعا على الأرض ، ورأى الطامة والقارعة رأى ما بين أذنه اليمنى إلى أذنه اليسرى خطا أحمر كالدم المَحصور ، لم يُصدق ما رأى فَحجمت عيناه ، وشخصتا وأدامتا النظر إليه في سُكون .

أحس أن روحه تنسل من بين ضلوعه ، قد أسكتت مَسامعه وارتجعت أضالعه ، وتَصلبت قدماه وتسمرتا في الأرض ، وعيناه ما زَالتا لم يرتد إليهما طرفهما ، وفؤاده ينتفض ، ويرتجس بداخل صدره من هول ذلك المنظر .

وسمع قَعقعة في أذنه تأز في جسده :

ـ اقتله ، اقتله ، اقتل عدو الله

اقتله ، اقتل هذا الظالم الفَاجر الذي حارب الله وافترى عليه

اقتله ، لا تقف هكذا مَزموعا خائفا ، أنت في قِمة صحوك ويَقظتك ، اقتله ولا تتردد

ارتعدت فَرائصه وانتفض من مكانه وصلق من داخله :

ـ ألم تكن رؤيا ؟ لا ، لا

وعدا مُسرعا يخرج من داره وهو مازال مُدثرا بالغاشية التي صوحته وفدغت كل تَفكيره ، وهشت كل مشاعره وأحاسيسه.

دخل غرفة نَومه ، وهو مازال في سكرته ، سكرة الرؤية ، رأى قطرات من الدم متناثرة في مواضع متفرقة من غرفته ، فصرخ صرخة مُدوية أغشي عليها منها ، لم يَنشغل به أحد حتى أهله أمه وأخوه الصغير وأبوه فَقد هرعوا إلى الصراخ الخارجي وانشغلوا بأمر المَذبوح .

سمع هَاتفا يقول له :

ـ قم يا عبد الملك ، قم وصدق

فقام من غَشيته يتلفت حوله ، فلم ير أحدا ، تمايل برأسه يمينا يفكر ، ثم قام وانتهز فرصة خلو الدار من أهله ونزع عنه لباسه المرقش بالدم ، ووضعه في منقد والده ، وأرش فيه النار حتى صارت رمادا ، ثم دخل المرحاض وغسل يديه وجلاهما من الدم ، ثم دخل غرفته وغسل الدم المتناثر فيها

فعل كل هذا في صمت وسكون ، وهو مازال في غشيته يحدث نفسه في صمت مقيت :

ـ كيف حدث هذا ؟ كيف أذعطه في مَنامي ويتحقق هذا في الواقع ويظهر أثره في الحال ، وتبدو علامات الذبح واضحة ، كيف؟ أكنت نائما حقا ؟ أم أني كُنت صاحيا واعيا وذهبت إليه وذَبحته ؟! لا ... لا ، لم أكن صاحيا فقد فقت على صراخهم ، ربما أكون قد ذَبحته فعلا في الحقيقة ، وأنا غائب عن وعيي، ولكن كيف ؟ كيف ؟ لا ..... لا ـ أنا لا أعرف شيئا ، أنا الآن أقف على شفرة الجنون ، لا أعرف كيف أفك رموز وغموض ما حدث لا أعرف الحقيقة ، أين الحقيقة أين ؟

الفكر والوسَاوس المهلكة يَعصفان به ، حتى كاد أن يُجن فظل يدور في الغرفة وهو يقول لنفسه :

ـ وماذا أفعل الآن ؟ هل أظل هنا أم أهرب ؟ ستتجه جميع أصابع الاتهام نحوي ، فأنا آخر من تَعارك معه وصفعه على خده، ولكن أبي وأمي كيف سَأتركهما ؟

تذكر أخاه فقال :

ـ أخي معهما ، لكن الآن أفر بِجلدي ، لكن كيف أهرب لا يُوجد هناك جريمة ولا قَاتل ، ولا آثار لتلك الجريمة ، لا يوجد هناك سوى خط من الدم المَحصور في رقبته ، ولا يُوجد ذبح، ولا شق ، ولا دم يلوث غُرفته ، ولكن هذا الدم الذي رأيته في كفي وعلى مَلابسي، لا ، هذا أمر مريب ، والاحتياط مهم جدا، ولابد أن آخذ بالأحوط ، والأحوط هو الهُروب .

وأبق أثناء انشغالهم بأمر هذا المَذبوح وخرج من القَرية يضكضك في سيره لا يدري أين يذهب ؟

نزل من القِطار القادم من محافظة سوهاج ليجد نفسه في القاهرة ، لم يَحسبها هكذا ، كان يراها في خياله حلما جَميلا صامتا عاش فيه غالب أحاييِنه ، مَرت سنوات وهذا الحلم يَجثم في صدره ويَرقد في عقله ، إلى أن أفاق ـ كَما حدث نَفسه بذلك ـ على واقع مَر أليم متأق بالصخب في الألوان والأصوات ، طافح بالغَرائب والعَجائب ، غَاص بِناس كَثيرة مُتباينة ، طام بالسيارات والعربات ، مترع بوجوه كَالحة مكفهرة ساهمة سائرون وكأنهم

مثلي أجساد بلا أرواح ووجوه أخرى فرحة مَسرورة ، وثالثة كئيبة حزينة ، ورابعة كأنها غائبة عن الواقع ، أو كأنها في عالم ، والناس في عَالم آخر .

لم يتمنَ أبدا ولم يرغب في يوم أن يسير في المدينة كتائه لا يَعرف طريقه ، كغريب لا يعرف أحدا في بلد يغص بشتى الصور منها القبيح والجميل المُستقيم والخليع المنحرف والضال والراشد والمهتدي .

ولكن كيف يَعيش في قريته وفي دراه بعد ما حدث ، حتى ولو مر الأمر بسلام ، ولم توجه إليه أصابع الاتهام وهذا هو الاحتمال الأقرب في ظَنه ، ولكن حتى لو لم يحدث هذا لم يعد يشعر بالراحة في بيته مع أهله بعد هذا الأمر الغريب الذي لو حكي لأجن المَجانين ما صدق هذا ولاستهزأ به ، أحس أن دراه سَتطبق عليه كأطباق الثرى كأنها قبر لِروحه ونار لجسده تلهبه، صاح بداخله :

كيف أعيش فيها وأنا قاتل ؟!

لا ، لست بقاتل ، أنا كنت نائما ، أبخ في نَومي فكيف أقتله؟ كيف ؟! لابد أن أعرف حقيقة الأمر ، لذلك أتيت إلى العاصمة بحثا عن هذه الحَقيقة .

سار في شوارعها تائها حتى وقف أمام عِمارة مرتفعة واجهتها مرشقة بعدد من اللافتات تخص بعض الأطباء والمحامين والمحاسبين وبعض المَكاتب الهندسية ، تصفح تلك اللافتات على عَجلة حتى وقفت عيناه أمام لافتة الأستاذ الدكتور «ناصح الزيني» طبيب نَفسي ودكتور بكلية الطب جامعة القاهرة .

ومع أنه لا يثق في الطِب النفسي صعد إلى تلك الشقة كي لا يندم بعد ذلك وكمحاولة للأخذ بالأسباب .

قصّ عَليه ما حدث ، تحير قليلا ، وأخذ يَتجول ويروح ويجئ أمامه في صمت وسكون ، ثم وقف وأسفّ النظر إليه، حتى بدأ الغضب يَبدو على ملامح عبد الملك ، وفكر في الهروب مِن أمامه، ولكنه أبعد بصره عنه ، ثم جلس وقال له وهو يتفصحه :

ـ ما قلته هذا ليس بمنطقي ولا يقبله عقل إلا إذا افترضنا أنك تعاني من انفصام في الشخصية ، وهذا سيتضح من خِلال عدة جلسات طويلة بيننا

وقف غاضبا ، وقال بصوت شديد :

ـ ماذا تَقصد ؟ أتقصد أني قتلته فعلا

رشقه الطبيب بعينه ثم وقف وقال :

ـ هذا احتمال وافتراض في الحُسبان يقترب من اليقين ، لأن ما تقوله لم يحدث قبل ذلك فكيف تحلم أنك .....

وقاطعه :

- لم أكن أحلم

- آسف ، أعتذر ، كيف تَرى في المنام في رؤياك أنك تَذبحه، وفي الوقت ذاته يرى أثر ذلك في الواقع وتَجده مَذبوحا ، والناس رأت ذلك

- ولكن هذا ما حَدث فِعلاً

- أتراني مأفونا ؟! كيف أصدق أن هذا هو ما حدث فعلاً؟!

- ولكن .....

قاطعه :

ـ أنا أعلم .... أعلم أن كثيرًا من مرضى الذهان العقلي بصوره عامة ومرضى الانفصام بصورة خاصة يَفعلون أشياء في غياب الوعي والإدراك و.....

قاطعه صارخا :

- ولكني كنت واعيا وأنا مُتأكد مما حدث

- أيضا المرضى العقليون قد يَختلقون قصصا وحكايات لم تحدث بالفعل ، وإنما هي من مسد وسبك خيالهم، ويصدقونها كأنها حدثت بالفعل ويريدون من الآخرين أن يصدقوهم .

– لماذا تحسبني معتوها ؟! وكيف تعاملني بهذه الطريقة كأني مجنون مع أن هذا هو ما حدث فعلاً ولم يكن من مسد خيالي .

– لو كان هذا هو ما حَدث فعلاً إذن أنت مريض بانفصام الشخصية

– كيف ذلك ؟!

– أنت الآن لديك شخصيتان ، كل شَخصية منفصلة عن الأخرى، هذا الانفصام لا يحدث لديك إلا ليلا، وعندما تَعاركت مع هذا الظالم الطاغية كما تدعي ، وكدت أن تخنقه حتى حال بينكما الواقفون ، ومنعت من ذلك ، وأدخلت بيتك ، انفصلت شخصيتك الغاضبة الكارهة له، وخلت نَفسك أنك نمت ، وأنت نمت فِعلا ، لكنك لم تنم طويلا ، فقد قمت ، وأنت شخصية أخرى، وتسللت ليلا إلى بيته ، وذبحته في غُرفته ، وعلى سريره ، ثم عدت مرة أخرى بعدما ذبحته إلى بيتك ونمت على سَريرك ، أيضا لم تنم طويلا فقد انبعث صراخ ونواح عال من بيت القتيل ، فَقمت مفزوعا على الصراخ ، قمت بِشخصيتك الحقيقية الطيبة ، وكأنك لا تعلم شيئا، وهرعت إلى بيت جارك هذا فوجدته مَذبوحا

انتبه إليه وانتصب واقفا صارخًا مذعورًا :

ـ لا ، لا ، أنت كذاب

هب هو الآخر وأشار إليه بِسبابته يقول :

ـ وعدت إلى بيتك وإلى حُجرة نومك فوجدت قطرات من الدم على ثيابك وفي أركان حجرتك فتعجبت وجدعك الذهول وسألت نفسك :

ـ من أين أتى هذا الدم ؟

ومن هنا حَصل استرجاع للذاكرة وربط بين المثير الذي رأيته بعينيك وهو جارك الطَاغية المذبوح ، وبين شخصيتك الدامية الماقتة له من ناحية وبين شَخصيتك الأخرى من ناحية أخرى، وهنا حدث تصارع بين الشخصيتين حول المثير، شخصيتك الطيبة انتصرت لأنها هي التي تَعيش بها أكثر أوقاتك بين الناس، وهي التي تعودت عليها وأقنعت نَفسك وعقلك وروحك أنك كنت نائما، ورأيت في المَنام أنك تذبحه

لم يصدق ما يسمعه ، واقتمه الغضب ونقع في وجهه :

– لا ..... لا ..... هذا لم يحدث ؟ انا كنت نائمًا ، أنا متأكد

– هذا هو التفسير العلمي والمنطقي لما حدث

– لا تشوش تفكيري ، أنا مُتأكد أني كنت نائما

– العلم يقول غير هذا ، والتفسير النفسي الصَحيح يقول إنك مريض وإن ما حدث لم يكن في نومك

- العلم يقول ذلك ؟

- نعم

- إذن علمك جاهل وقاصر وليس له أي أهمية في الحياة

- ماذا تقول ؟!

- أقول إن ما تعلمته هباء ولغو ، والجهل أنفع منه ، وأنت لا تَفقه شيئا في الحياة ولا في الدين ولا حتى في الدنيا

صاح في وجهه :

- اخرس يا مأفون ، أنا الدكتور ناصح الزيني أربعون عاما في التدريس ومازلت أدرس ، حَصلت على جوائز وشهادات تقدير عديدة من أكثر من خمسين دولة حول العالم ، ولي أربعون مُؤلفا في الطب النفسي والصحة النفسية وكتبي ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وتدرس في جَامعات كثيرة، وتأتي أنت يا نكرة يا حقير وتتهمني بالجهل وبأن علمي هباء ولغو يا مجنون

- أنا لست مَجنونا ، وسترى وسوف أثبت لك أني لست مجنونا، ولم أقتله حقيقة ، وإنما ذبحته في المنام وبان ذلك وبدا على رقبته عيانا

- وإذا كان ما تَقوله هو ما حدث فعلا سأعتزل الطب والتدريس وسأحرق جميع كتبي وكتب علماء الطب والتحليل النفسي في العالم، وسأعتزل الناس وسوف أكرس ما بقي من حياتي لعبادة الله عز وجل وتعليم وتعلم القرآن الكريم .

مع أني أعلم علم اليقين أن هذا لن يحدث لأن عِلمي صحيح، وفيه تفسيرات وتأويلات لجميع الظواهر المختلفة التي تَحدث للنفس مهما كانت غرابتها ، وها أنا قد فسرت لك حالتك التي تعتقد أنها شاذة ، وليس لها وجود أو أصل في العلم، فأنت جاهل لا تعرف أن في هذا العلم علاجا ودواء لأي مرض نفسي أو عقلي .

عندما كان يتحدث ظَل يسمعه بإنصات ولم يَعرف كيف يرد عليه ، ولكن عندما أنهى كلامه ، ألهم الجواب ورد عليه بِكلام لم يقوله أو يقرأ عنه قبل ذلك ، فانتظر حتى أنهى كلامه وقال:

ـ كذبت ، فالروح من أمر الله وعلاجها عِند الله وليس في علمكم وكتبكم علاج لها مَهما أوتيتم من علم ، ما قلته قد يكون صحيحا إذا كان متعلقا بالبدن وبالجسد وما يُصيبه من أمراض، وأيضا هذا كُله بأمر الله عز وجل وإذنه فَهو الشافي حقيقة ، وعِنده دواء لكل داء ، فهو الذي يَنفع وهو الذي يضر، وهو الذي يَبتلي بالداء ، وهو الذي يَشفيه ، وليس أمثالك من أطباء الجسد، فَكلكم سَبب للشفاء ، والله أمرنا أن نَأخذ بالأسباب

وسوف أثبت لك صدق قَولي ، سأوريك أن علمكم وعلم علماء الدنيا كلهم عاجز وقاصر عن فَهم وكشف غموض ما حدث إلا من رحم ربي ، وهذا الذي استِثنيته والذي سَيرحمه اللّه لن يكون مثلك تائهًا وضَائعًا وضالاً عن الرشد ، سيكون على صلة باللّه عز وجل وقَريبا منه ، وسوف يلهمه اللّه سر ما حدث وسوف يَكشف لي حقيقة ذلك حتى لا أضل أو أتوه أو أغيب في غَياهب الزلل والضلال

- أنت مَجنون ، ولا تدري ما تَقول

- لَست مجنونا وسأثبت لك ذلك

- بل مَجنون وقاتل وسأبلغ عنك الشرطة كي يأخذوك يَسجنوك أو يَعدموك أو يودعوك مستشفى الأمراض العقلية .

ووضع يده على سماعة التليفون ، فخاف على نفسه ودفعه حتى وقع على الأرض وهملج يفر مُسرعا من هذا المكان ، وخرج إلى الشارع يَمزع ويطفر في مَشيه حتى بعد عن مناطق البنيان والعمران وأصوات الحياة

وجد نَفسه في منطقة صحراوية نائية خاوية من الدبيب والتزيد، نَظر حوله ، فلم يجد صريخا لرضيع ، لا يرى سِوى رمالا من كل جانب ، فزادت رهبته من هذا المَكان المُكفهر الساكن

رمل وهو خائف يَرتعش والظلام من حوله يَبرك على جسد الكون ويربض على العيون ، كان يَتساوك في سيره ، ومع ذلك تحمل وتصبر حتى بلحت قدماه فهوى على الأرض من شدة النصب والإعياء ، شعر بالموت يَنسدر نحوه ، فاستلقى على ظَهره وأغمض عينيه وولج في غَمرات النوم ، وسمع صوتا يناديه :

ـ يا عبد الملك لا تنفر ، وابحث عن جَعفر

ـ يا عبد الملك قم وانهض ولا تركن ولا تَنقض

ففتح عينيه والتفت نحو الصوت فرأى أخاه «يعقوب» واقفا عِند قدميه ، فنهض جالسا بسرعة وهو سعيد ، يقول :

– أخي يعقوب ، لم أرك منذ لَيال ، أين أنت الآن ؟

– أنا في النعيم أرفل ، لقد عفا الله عني ، وغَفر لي ذنوبي وأبدلني دارًا خير من داركم .

– ولكني كنت أراك لا تفعل ذُنوبا ، فقد كنت تقيا ورعا تعلمت القرآن وعملت به وعلمت غيرك ونشرت الخير بَيننا .

– ذنوبي كانت في خَلواتي يا عبد الملك ، كانت بيني وبين نفسي ولولا رحمة الله عز وجل لكنت من المحضرين ، لا تَحتقرن ذنبا ولو كان صغيرًا يا عبد الملك ، فإن النار من مُستصغر الشرر

– أنـا أسـير علـى دربـك يـا أخـي ، لقـد افتقدنـاك كثيـرا ، افتقدتك أنـا وأبـي وأمـي وأخونـا الصغيـر، لـم يَعـد للحيـاة طعـم مـن غيـرك ، فمنـذ أن تَركتنـا وتبدلـت حياتنـا كأن الخيـر كان مَعـك وزال بزوالـك، حتـى حـدث لـي شـيء عكـر صفـو حياتـي وزهـك عقلـي ، ومَجـل جسـدي ، ومحـش فـؤادي ، وطردنـي مـن بلـدي ومـن دراي ولا أدري مَـاذا أفعـل؟

– أتاني علم ، لذا جئت إليك أرشدك

– أرشدني ، عفا اللّٰه عنك

– يا عبد الملك لا تنفر وابحث عن جَعفر

– من جعفر هذا الذي تُريدني أن أبحث عنه ؟

– جعفـر ! ومـا أدراك مـا جعفـر ؟! شـيخ صالـح ، آتـاه اللّٰه علمـا واسـعا وفهمـا ثاقبـا وعقـلا مُتوقـدًا وفـؤادًا شـاكرًا ولسـانا ذاكـرًا ، عنده ستعرف الخبـر وستعلم حقيقـة مـا حـدث لـك وسـوف يُرشـدك إلـى الصـواب ويبعـدك عـن العـذاب .

– وأين جعفر هذا ؟

– لقد صرت قَريبا منه

– أرجوك أعلمني مكانه أريد أن ترتاح نفسي ويَندحر ما بداخلي من هم وغم وحزن عميق ، لقد تآكلت من الداخل ، وامتكتني الحيرة ، وسَحفني الفكر وسحلني، لا أعرف حَقيقة ما حدث هل أنا فعلا قَتلته كما يقول هذا الطبيب ويصدق في تَحليله النفسي العقيم ؟ أم أني فعلا لم أقتله ، وإنما كان ذلك في المنام ، وظَهر أثره عليه ، وإذا كان كَذلك فكيف حدث هذا ؟

– سَتعرف كل شيء عنده

– إذن أعلمني مَكانه وأرحني من هول ما أنا فيه

– هو في صَحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، ولكن اللّه يُطعمه ويَسقيه وإذا مرض فهو يشفيه

– كيف أصل إليه في هذه الصَحراء المترامية الأطراف

أشار بيده خَلف ظهره وقال :

ـ سر في هذا الطريق ، لا تحيد عنه واتبع هَزيم الرعد وانعقاق البَرق حتى إذا صمت الرعد وانطفأ البرق سَترى جعفرا

صحا مفزوعا على هدهدة الرعد وتبوج البرق ، نظر إلى السماء ، فرأها تقصف وترتعج ، فنهض مذعورا والتفت خلفه، ينظر إلى الطريق التي أشار إليها أخوه ، ثم قَام يرأل فيها بِنشاط

وحماس ، كل خُطوة كان يَخطوها كان خوفه يتلاشى رويدا رويدا ، فأحس بِخفة في جَسده ، فأزرف في سيره وهو متئر أذنه وبَصره الرعد والربق حتى سَكن الرعد ، وهبا البرق، فوقف وأخذ يتلفت حوله ، فرأى كَهفًا سحيقا أسفل جَبل صغير، فهرع إليه ، ووقف أمام بابه وصَرخ :

ـ يا شَيخ جعفر ، يا شيخ جعفر ، أنا عبد الملك ، يا شيخ .....

ولم يكمل كلامه حتى رآه يخرج من الكهف تَقوده عصًا مضيئة ، فعرف أنه أعمى ، فوقف أمامه صامتا يحدج فيه ببصره وهو مزموع

قد أعجب من شَكله وغرابته ، فَقد رآه شيخا خرفا قرب أن يَضحا ظله ، لحيته بَيضاء كالثلج ، وعُروق وجهه بَارزة كأنها جُذور شجرة قديمة ، نَظر إلى عصاه المُضيئة كأنها البدر ، فهزّ رأسه وقال بِصوت خافت :

ـ أنت في رعاية اللّه

فرفع عَصاه المضيئة وصَوبها نحو وجهه ، حتى كاد أن يفقد بصره ، فأغمض عينيه وأشاح برأسه عنها ، ثم قال :

ـ تعال ورائي يا عبد الملك

ودخل وسار وراءه وقد زحفت نحو قَلبه طمأنينة غَريبة لا يعرف مَصدرها سارا في سِرداب عميق ممتد داخل الكهف ، حالك الظلام ، لا يَكاد يرى شيئا إلا من خلال تلك الهالات المُنبعثة من عصاه الضَوئية ، حتى دخلا مَجلسه البسيط في آخر النَفق ، لم ير فِيه سوى حصيرًا قديما وثلاث أريكات ، ودلو مياه مشبوك به حبل ، وثلاثة أرغفة من الخبز المحمص ، وكوب من اللبن وبعض ثمرات البرتقال والليمون ، تخطمه ذهول يجمش عيونه ، ثم تذكر قول أخيه :

ـ ولكن اللّه يطعمه ويسقيه وإذا مرض فهو يشفيه

فأعاد قوله بصوت مرتفع :

ـ أنت حقا في رعاية اللّه

فقال وهو يضع عصاه أمامه ويجلس :

ـ اجلس

فجلس بين يديه وقص عليه قصته كلها ، ورأى عينيه رغم عمائهما تنظران إليه نظرات ذي علق ، فَانتابته دهشة :

ـ هل هذا الشيخ يرى أم لا ؟ لا أدري ، عيناه توحيان بأنه يرى

نَظر إليه في سكون ، فخاف من صمته وهو يسجد ببصره، فقطع صمته وقال :

ـ يا شيخ جعفر ، أنا .....

فجدع صمته هو الآخر وكأنه يعلم ما به :

– لا تَخف يا عبد الملك

– أنا متحير

– من ماذا ؟

– مما حدث لي ، ومن معرفة أخي بما حدث وبمعرفته أيضا بك، كيف عرفك ؟

– لا تَتحير

– كيف لا أتحير وأنا أذبح إنسانا في المَنام ويظهر ذلك حقيقة في الواقع ، ويذبح ، وأرى الدم في كَفي وعلى ملابسي وفي بعض جنبات غُرفتي

انفطرت شفتاه عن ابتسامة منيرة وقال :

– ما حدث هذا من تأثير روح في روح

– تأثير روح في روح !! كيف ذلك ؟!

– هذا الرجل فَاجر ومذنب وظالم قد أصبح طَاغوتا تطاول على جناب اللّه العظيم وافترى عليه وسب الدين، ولم يجرؤ أحد على منعه أو نَهيه ، لكنك كنت قَويا في الحق ، تَمقت الظلم وتبغض

الظالمين ، أنت قوي في الحق يا عبد الملك ، تغار على دينك ، لم تَرتض أن يتطاول على جناب اللّٰه الكريم مع ما فَعله في أهل البلد من إيذاء وضَرر حتى خَرب بيوتهم واستولى على أملاكهم وشَرد أطفالهم ونِساءهم ويتم بعضهم ورمل نساء بعضهم، وسار فيهم بالفَحشاء والمُنكر والبغي والعدوان حتى صَار عميقا في الظُلم والطُغيان وما حدث ذلك اليوم كَان بمثابة الشرارة التي أحرقت الهَشيم ، فانقضضت عليه وكدت أن تَقتله ، حتى حِيل بَينكما ، أنت من دَاخلك في الحقيقة تَريد قَتله حتى يرتاح القوم من شره ، لكنك لا تعرف ولا تجرؤ على ذلك ، وقد تُؤخذ بجريرتك تلك لأنك قَتلت شخصا ، فنمت ورأيته في المنام يحاول قتلك ، وقد أوشك على ذلك حتى قُذف إليك سيف الحق ، وسيف الحق أقوى من سيف الباطل ، لذا هوى السيف من يده ، وخر جَاثيا على ركبتيه يستصفحك ، ولكنك كنت مأمورا في رؤياك ، فَوضعت حد السيف على رقبته وذبحته كما تذبح الشاة ، أنت لم تذبح جسده ، ولكن ظهر أثر الذبح على جسده على رقبته وهذا الاتصال بين روحك وجَسد جارك من عند اللّٰه سبحانه وتعالى

– ولكن .... الدم ، لقد رأيت دمًا في يدي وعلى ثِيابي وفي غُرفتي، كيف أتى الدم إليّ ؟

– هذا من طلاقة قدرة اللّٰه عز وجل ، رأيت الدم على يَديك ومَلابسك وفي بعض أركان حُجرتك كي تَكون على يقين بأن اللّٰه

على كل شيء قدير ، وأن كل شيء في يَد الله ، وأن الروح مخلوقة مأمورة بأمر الله وحده ، وليس لأي مخلوق آخر من مخلوقات الله القدرة على كشف سر الروح العميق إلا بأمر الله ، فمازال العلم عاجزًا حتى الآن أمام أمر الروح ذلك المَخلوق العجيب الذي يسكن بِداخلنا ويكون سببا في حياتنا وعندما تنزع نَموت مباشرة، لم يستطع أحد حتى الآن كشف أمر تِلك الروح، ولن يَستطيع .

وأنت ذهبت إلى أحد علماء الدنيا وفسر ما حدث تفسيرا سطحيا ظاهرا على حسب ما أملاه عليه عقله وفكره وما قرأه من معلومات في كتب أكثرها ليس عربيا بل هي كتب مترجمة منقولة عن غير العرب ، ولم يفطن إلى التفسير الباطني العَميق

ذلك لأن علمه قَاصر وناقص لأنه لم يتصل بالدين وعُلومه، حيث من المعرفة الحقيقة واليقين بأن الله قادر على كل شيء، وبأن الروح مَخلوقة ومأمورة بأمر الله ، ولها عَجائب وغرائب في حال النوم حيث تَنطلق من محبسها وتجوب عوالم كثيرة قد نعلم بعضها وقد نجهل البعض الآخر ، وما يحدث لها في الرؤيا وفي المَنامات والأحلام قد يظهر عيانا واضحا جَليا على الجسم، وهذا حدث كثيرا قبل ذلك ، ويَحدث وسيظل يحدث إلى قيام الساعة، اختبارا من الله سبحانه وتعالى لِعباده ، فيصدق من يصدق ، وينكر من ينكر ويَتحير من يتحير

– وأخي ، كيف عَرفك وعرف طريقك ؟

– أنا لم أر أخاك قط ، ولا أعرفه ، وإرشاده لك على طريقي إنما هو بأمر الله عز وجل ، وكما قلت لك الروح من أمر الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا﴾

قام من عنده وهو خفيف نَشيط ، قد زال عنه الهم الثقيل، وصفت روحه ، ورفرف قلبه بين جوانحه ، وشفتاه لم تقف بين الفينة والأخرى عن تلاوة هذه الآية : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا ﴾ .

●●●

ياسمين

من الموحش والمؤلم أن تعيش وحيدا ، لا تجد أحدا تبث له همومك ، وتبوح له بأسرارك ويبوح له بأسراره سوى زهرة فواحة تعتني بها ، وتملأ عليك حياتك بِرائحة جميلة ، تشتمها الأنف ، فَتعطس عن راحة وطمأنينة

ولكن الغريب أنه لم يَكن لدي أسرار أواريها عن أحد ، عشت عمري وحيدا ، تجاربي محدودة ، خِبراتي ضيقة ، ولكني كنت عائشا على أمل أن يأتي من يغير لي حياتي ، كنت على يقين بأن هناك من سَيأتي إلى عَالمي يعيش معي فيه ، كنت أقول قديما لِبعض أصدقائي قبل الغربة في بعض جلسات السمر :

ـ إن شيئا ما قد يحدث في حياة الإنسان يغيرها دون أن يشعر

وكنت أنتظر ذلك على أحر من القيظ ، حتى حدث ..

لقد رأيتها وهي تسقي زهرة الياسمين الغضّة عندما كنت مارا من هذا الشارع الذي خطرت فيه لأول مرة في حياتي ، لم أدر ما الذي دفعني لأرفع رأسي وأراها ؟

إنها الشمس ومن ذا يقاوم نورها ؟! وكأنها منتقبة بالبدر، شعرت بنور الشمس سطع في عيناي فلم أستطع الرؤية من حولي، فتشوفته بيدي فوق حاجباي لأرى جمالا لم أر مثله، فمطلع الشمس من بين عينيها، ومنبت الورد في خديها المحمرين، مراود الليل في شعرها المنسدل على كتفيها محيط بعنق كإبريق اللجين .

أسرتني، بل سحرتني ، فتثبتت قدماي بالأرض ، وتصلب جسدي، أحدج فيها وهي لا تعيرني أدنى انتباه ، وكأني لست في عالمها، لم تشعر بي كأني مازلت غائبا تائها في غربتي ، تمنيت لو أن تنظر فتراني أحضنها بعيني ولكنها لم تنظر ...

توقفت هنيهة عن سقيا الزهرة ، وكأنها شردت بفكرها، وسرحت بعقلها بعيدا عني تفكر في شيء، ثم عادت بأنفها تشتم عبق زهرتها، حتى أحسست بتلك الروائح تمر عبر أنفي وتستوطنه، ظللت معلقا بصري لأعلى أقول لنفسي :

ـ انظري أسفل منك ، أرجوك .

قلتها لنفسي وقلبي يتحرق ، يالها من أمنية بعيدة ، لم تلتفت أو حتى نفضة بعينها نحوي، لم تنظر ونظرت إلى زهرتها بحب، ثم تركتها، ودخلت يداعب النسيم وجهها ، ويلاطف شعرها .

تركتني وحيدا تعصف بي الآلام، وتتناوبني الأحزان ، وتطرحني أنات الاشتياق على السرير صامتا شاردا هائما بها :

ـ من هذه ؟ أول مرة أراها ؟ أهي من هذا الشارع ؟ وكيف لم أرها من قبل ؟ من تكون ؟ من هذه الفتاة الساحرة التي تتلقفها العين ، ويهواها القلب فترتاح لها الروح ، وما هذا الوجه الفاتن قيد الأبصار ، وأمد الأفكار ؟

أسئلة كثيرة ، سألتها لنفسي ولزهرتي وأنا أسقيها ، وخيالي هائم في تلك الفتاة قد قررت أن أعرف بنفسي أجوبة لتلك الأسئلة.

ذهبت إليها ، وسرت في نفس الشارع ، وأنا حائر متردد تارة أنظر إلى الشارع والسائرين فيه ، وغالب نظري كان مثبتا لأعلى آملا أن تخرج لزهرتها، ظللت ساعة لعلها تخرج والشوق يطمرني، واللهفة تفركني فتسليت بحديثي المعتاد لنفسي :

ـ أرجوك اخرجي، لابد أن أعرف من هَذه الفتاة ، التي شغلت تَفكيري، أرجوك اطلعي أيتها الشمس، وأنيري جوي من جديد .

مر الوقت ، وأنا على هذه الحالة أتابع بين نَظراتي لأعلى حيث زهرتها وبين حديثي لنفسي ، حتى احتواني الملل وكللني اليأس وتغشاني السأم فهممت بِالرحيل ، وعندما تحركت قدماي متهيأ لذلك ، أحسست بنورها فرفعت بصري فوجدتها تسقي زهرتها وهي شَاردة حزينة .

فَعادت الحياة إلى جسدي مرة أخرى ، وحملقت فيها ، وأسففت النظر إليها مستعينا بيدي ألوح بها إليها ، لكنها لم تنظر، لماذا، لماذا ؟

ـ ما هذا الخجل ألن تتجرأ أبدا ؟ لقد ضَاعت منك فرص كثيرة بسبب خجلك هذا ، تحرك يا صنم ، فجاءتني الومضة فقلت أتكلم وأرفع صوتي بأي اسم وليحدث ما يحدث ، وعندما رفعت شفتي العليا لأنطق، وجدتها تهرع مسرعة للداخل على صوت امرأة تناديها بـ «ياسمينا»

لقد عَرفت اسمها، إنها ياسيمنا، ياسيمنا وتسقي الياسمين، تلك الزهرة التي أحبها، وأعيش معها دائما ، إنها زهرتي المُفضلة التي أبوح لها بأسراري

ياسمينا ، يا له من اسم لَذيذ !!

ظللت واقفا على حلم الخُروج مرة أخرى ، لكن لم تخرج، فأصابني اليأس والإحباط مرة أخرى، وأخذت أتململ على فِراشي قلقا حائرا ، فخرجت إلى زهرتي أناجيها ، وأكلمها أبوح لها بِسري الجديد الذي غير حياتي ، وجعلني أهتم بشيء جديد غريب على عقلي وقلبي ، إنها أول مرة أشعر بالحب ، لقد أيقنت بالحب من أول نظرة لكنه حب ضعيف ، من جانب واحد ، فهي لم تشعر بي بعد ، متى ستشعر بي ، متى سأقول لها إني أحبها ؟

متى سَأبوح لها بأسراري وأترك زهرتي ؟

أريد كائنا حَيًا مثلي أبوح له بأسراري أعيش معه أحس بها وتحس بي

لقد وجدتها ، ولكن وجودًا تائها ضائعا ؛ لأنه وجودًا ناقص، لقد وجدتها وهي بعد لم تَجدني .

لكني سأعيش على أمل أن تَجدني ، وتنظر إلي بعين الحب الصافي ، كما نظرت إليها ، سأعيش على أمل أن تكون ياسيمنا زهرتي الحقيقية التي تملأ بيتي فرحة ، وبهجة وتكون لي الإنسانة الأولى والأخيرة لقلبي .

●●●

طريق الضلال

– قلت لك قبل ذلك لا تتكلم فيما فَوق العرش .

– ولم ؟! ألم يعط اللّه لنا عقلا نَتأمل به ونتدبر

– نتأمل بدائع صنع اللّه ، ولكن بعيدًا عن ذات اللّه ، إذا بلغ الكلام إلى اللّه فأمسك ، ولا تجعل الشك يسحفك بعيداً

– كيف تقول ذلك وأنت الذي عَلمتني طرق القياس العقلي؟! فأنت من وضعني على طريقي هذا

– لا تحملني ذنبك ... لقد هداني اللّه إلى الطريق المستقيم، وأدعو اللّه أن يهديك

أتراني قد ضَللت ؟

– أنت سائر في طريق الهاوية ، وقد نَصحتك كثيرًا ، ولكن لا تحب الناصحين

– أنا حقك لم أعد أفهمك ، ألست من وجَهتني إلى هذا الطريق قبل ذلك ؟! والآن تريد أن تَزيلني عنه ، لماذا ؟

– لأن اللّه هداني كما قلت لك ، انظر (ويشير بسبابته إلى مكتبته المكتظة بالكتب) لقد أحرقت كل ما كان يرسفني بالفلسفة، ويَسجنني في جحيم الضلالات ، والأفكار الهَدامة

يندهش نصر وهو يَنظر إلى المكتبة في عَجب ثم يقول :

– أحرقتها ؟! كنت هبها لي ، لقد كانت مَكتبة شاملة .

– أعطيها لك كي يزيد ضلالك وانحرافك ، ويزداد ذنبي ؟! ماذا سأقول للّه ؟! إني لا أهجع بسببك .

– ولم ؟! لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولقد وهب اللّه لِكلينا عقلا، وأنا مقتنع بفكري وفَلسفتي .

– هذا الفكر الذي ترسف فيه ضَال ومضل وسينزفك ويسحف بك إلى الهاوية

ألم تقرأ فيه قبل ذلك ؟! ألم تكن من أرباب هذا الفِكر؟!

– لا ، أنا قرأت فيه على سبيل المعرفة ، لكني لم أتوغل فيه، ولم أغص فيه مثلك ، فلم يُضلني كما أضلك ، ولم يستحوذ علي كما استحوذ عليك ، وهذا لأن هناك شيئا ينقصك ، شيء كان عندي ، وأحمد اللّه عليه ولم يكن عندك وهذا الشيء هو الحِصن المنيع ، والطود المنيف لأي قارئ لهذا الفكر ولكتبه وللفلسفة وعلم

الكلام بصفة خاصة ، وهذا الشيء الذي كان يسطع بداخلي هو الذي غلفني واستحوذ علي ومنعني من الضلال ، وهو الذي بسببه طويت الماضي ، وأحرقت كل ما كان سيحرقني .

– ما هو هذا الشيء الذي كان لديك ولم يكن لدي ؟

– الإيمان

– الإيمان ؟!

– نعم ، الإيمان القوي ، كان هو بمثابة الجدار الذي حال بيني وبين تأثير كل ما كنت أقرأ فيه مِن الفلسفات المُضلة

– أتعتقد أني لست على قدر مِن الإيمان ؟

– لو كان لديك مِثقال ذرة من إيمان لما توغلت فيما أنت فيه من التيه

يتغير وجهه ويفور فيه دم الغضب فيصيح به :

– أي تيه هذا ؟ ألأني استعملت العقل في معرفة كل ما يُحيط بي، إذن فما فائدة العقل ؟ ! إذا لم يكن في خَلقه حكمة في الإنسان لكنا مثل الحيوان بالضبط ، لا نفترق عنه في شيء .

– لا يُعجبني كلام المعتزلة هذا ، فلقد سئمت منه ومجته

– كلام المعتزلة ؟! ما الخطأ في رأيك في مُعتقد المعتزلة ؟

– أنت تلج في غيك بإرادتك وباختيارك يا نصر

يصيح نصر فرحا كأنه حصل على جائزة :

– أرأيت .....أنت مَازلت مثلي ، لم تزحل عن معتقداتك

– معتقداتي ؟! ماذا تقول ؟ أنت مخطئ .

– ألم تتكلم منذ ثوان عن الإرادة والاختيار، وتقول بأني مخير

يزعق فيه:

– لا ، لم أقصد هذا.

– بل تقصد ، إنها عقيدتك.

– الكلام معك لابد وأن توضع له نِهاية

●●●

رآه نصر وهو جالس تحت الشجرة التي أمام بيته يقرأ في كتاب «الانتصار» للخياط المُعتزلي يقرأ في قضية العالم بين القدم والحدوث ، وعلى الأرض كتابان أحدهما «الملل والنحل» للشهرستاني والآخر «الفرق بين الفرق» للبغدادي

رآه كأنه خارج من قَبر ينتظر الحساب ، لفعه الخوف ، واقشعر جلده وانتصب شعره، وبرزت عيناه من مَحجريهما ، وأحس بيدين تطبقان على أنفاسه فرمى كِتابه .

وجده يزنهر إليه بعينيه ويزلقه بهما ، فأخذ يَتراجع إلى الخلف فصدته الشجرة فتنحي جانبا، وهمّ بالقيام ولكن قدماه لم تَتحركا كأنهما قد شُلتا، أبت القيام فاضطجع على ظهره في فزع، وهو يَشيح بيديه يمنة ويسرة ، ولما شعر بأن روحه قد عادت إليه بعد انسحاب يديه من فوق رقبته ، رفع رأسه في خوف كي يَتشوفه فلم يجد شيئا، ولم يجد كُتبه التي كان يقرأ فيها ، فطما خوفه وأخذ يتلفت حوله كالمجنون، ثم قفز من فوق حجر أمامه وهرول مسرعا .

دخل حُجرته ورتج الباب ، وهو منقطع النفس ، ووجهه يتودق عرقا، وعيناه تدور في محجريهما من الهلع ، واقترب من مَكتبته المتخمة بالكتب وتصفحها بنظرات عابرة ، لم يأبه بها ، ثم رمى بِجسده على السرير ، وأخذ يحدج في السقف ببصره ، وصورة الشبح تَتراءى أمام عينيه .

قد توسد ذِراع الخوف ، وتململ على فراشه ، وهو يرتعش، ثم اعتدل جالسا على السرير وقال بصوت مُتهدج :

ـ وجهـه ليـس غريبـا علـيّ ، لقـد رأيتـه قبـل ذلـك ، نعـم لقـد رأيتـه، ملامحـه قريبـة جـدا منـي ، ولكـن مـن هـو ؟ مـن ؟ وأيـن رأيتـه قبـل ذلـك؟ أيـن ؟ وهـل كنـت نائمـا أحلـم وهجـم علـي هـذا الكابـوس، أم أنـي مازلـت يقظًـا، لـم ينفلـت منـي عقلـي ، وأيـن ذَهبـت كتبـي؟ ربمـا أخذهـا معـه، لكنـه شـبح وكتبـي حَقيقـة، كنـت أقـرأ فيهـا وأتلمسـها بيـدي وعينـي وعقلـي ، فكيـف يـواري الشـبح وهـو وهـم أو خيـال كيـف يـوراي الحقيقـة ؟!

إنـي متحيـر خائـف، وقـد ألغبنـي الفكـر وأنهكنـي، آه ، يجـب أن ألـج في الصمـت كـي أريـح عقلـي الآن ، وبعـد ذلـك أبـدأ في تَفسـير مـا حـدث تفسـيرًا عقليـا بحتًـا، فالعقـل هـو طريـق الوصـول للحقيقـة.

لـم يكـن يخطـر في تفكيـره أنـه سـيراه مـرة ثانيـة بعدمـا تأكـد وتيقـن أنـه واقـع، ولا مـكان في حياتـه للوهـم والخيـال

كان جَالسـا في بلكونـة حجرتـه يقـرأ في أحـد كتـب أئمـة مذهبـه ومعتقـده، وملامـح الفضـاء مـن حولـه مدلهمـة مكفهـرة ، هـزيم الرعـد يصـم الآذان، وخطاطيـف البـرق تعمـي الأبصـار ، وجَفـاف الليـل مـن حولـه يهمـك المشـاعر والوجـدان وضيـاع النجـوم في السـماء يُميـت القلـوب مـن الخـوف ، كانـت كأنهـا آخـر ليلـة في الكـون، وبعدهـا سـتنقلب السـماء علـى الأرض ، كانـت السـماء كأنهـا تطبـق علـى أنفـاس الكـون .

وكان هو شاطحا في القراءة ، لم يكترث بما يحدث حوله، حتى رأى قدمي إنسان حافيتين ، كلبشه الخوف ، وارتعدت فَرائصه ، ورفع بصره في بطء يدفعه فزع حتى رأى وجهه فالتحمت أعينهما، ولمح كل منِهما ما في عيني الآخر .

راعه منظره ، كان بملابس بالية مسجاة بالتراب ، وكان شعره كأنه تحلل ولم يبق منه إلا بعض الشُعيرات تتهدب على جبهته .

هالته نظرات عينيه ، كان ينظر إليه في توعد ، رأى يديه الطويلتين كأنهما من المطاط تمتدان نحوه ، تمسكان بالكتاب الذي في يده وتمزقه ، ثم تحيطان عنقه تخنقه ، لكنه قاومه وقام واقفا ودعه في صدره ، وأبق نحو الباب ليفتحه ويفر، ولكنه كان مرتجا ، فالتفت فلم يجده ، ووجد الهواء يطيح بقطيعات الورق الممزقة والمُتناثرة في كل مكان في أرضية البلكونة ، فجرى عليها، وأمسك ما بقي منها ، وأخذ يُتابع القطيعات الممزقة السابحة في الهواء وهو مكمكم في خوفه وألمه .

قد جَدعه ما يحدث له ، فاستجمع نفسه وحرك مقبض الباب ففتح معه هذه المرة ، ورقل نحو إحدى حجرات البيت المغلقة ، كانت موحشة في الظلام فسار فيها دون خوف ، كان يعرف طريقه في الظلام ، أخرج صندوقا من أسفل السرير وحمله بين يديه وهفا في مشيته حتى دخل حجرته ، وبعثر كل ما في

الصندوق عَلى سريره ، وأخذ يعبث بها بيده ، حتى أمسكت يداه بألبوم صور قديم ، وأخرج كل مَا فيه من صور حتى تعلقت يده بصورة صغيرة قديمة لِشيخ كبير ، أخذ الصُورة وظل يحدجها بِبصره ويحدق فيها ، حتى صاح :

ـ هو ..... إنه هو ، أنا كُنت متحيرا في أمره ، وأقول لنفسي أين رأيته؟! ولكن ..... هو ميت منذ أكثر من خمسين سنة ، هل بعث من جديد؟! كيف له أن يحيا بهذه الصورة ويأتي ليرعبني وهو لا يعرفني ، ما الأمر؟ ربما أنا نائم ، لا ، لَست نائما إني في ذروة صحوي، إذن كيف ؟ كَيف ؟هل مازال حيا، وكان يَخدع الجميع طيلة هذه الفترة ، ربما ، فأنا لا أعتقد في الأوهام والخيالات والخرافات وكرامات الأموات التي يعتقد فيها كثير من البلهاء ، لابد وأن أعرف الحَقيقة ، حقيقة هذا الأمر ، وليس غَيره ، هو الذي سوف يأتي لي بِحقيقته ، ولكنه قطع كل روابط الصلة بيني وبينه، فماذا أفعل ؟

دخل المسجد وكان قد هَجره منذ فترة ، لم يدخل ليصلي، دخل لهدف ، أخذ يدور بِعينيه في جنبات المسجد حتى رآه منكبا على تلاوة القرآن الكريم ، دنا منه وجَلس يستمع تِلاوته :

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا

تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

صدق الله العظيم

التفت إليه ، وجده يُحدق فيه فاندهش وقال :

– ما الذي أتى بك إلى هنا ؟ آمل أن تكون الهداية

– لقد جئت من أجلك

– إذن ليست الهداية ، ألم أقل لك إن ما بيننا انتهى ؟!

– حدث شيء خَطير ، ولابد أن تعرفه كي تُرشدني وتأخذ بيدي

– قلت لك لقد طَويت الماضي ، وأرجت النار في كل ما كان يربطني به

– لابد أن تَسمعني وإلا قتلت نفسي وحملتك المسئولية ، فأنا على شفا الجنون

نظر إليه الدكتور «عبد المجيد» سابقا والشيخ حاليا ـ بلين ورمقه بنظرات رطبة بعدما رأى في عينيه الضَعف ومع ذلك رأى أيضا إصرارا وصدقا فيما هدده به ، فقال :

ـ تكلم ، ولا تطل ، فَعندي أمور كثيرة

وقص عليه ما رآه وما حدث له في الأيام السالفة ، فقال الشيخ عبد المجيد بكل بساطة وسهولة :

ـ لقد كُنت تحلم

ـ لم يكن حلما ، انظر

ويخرج من جَيبه بعضا من الورق الممزق ويرفعه له وهو يقول:

ـ هذا ما بقي مِن الكتاب الذي مزقه .

يرمقه الشيخ ثم يَسف النظر في الورق ويقول :

– ماذا تريد ؟

– أنا لا أفهم شيئا مما يحدث حولي ، يجب أن ترشدني وتدلني على الحقيقة

– ألست تؤمن بِقدرة العقل المطلقة في التحليل ، والوصول إلى الحقيقة المطلقة في كل شيء

– ماذا تقصد ؟

– دع عقلك يُرشدك إذن ويدلك على حقيقة وضعك هذا

– أتهزأ بي ؟!

وهب واقفا وقال بغضب :

ـ لن أدعك تَنتصر عليّ ، وسوف أعرف بعقلي حقيقة كل ما يدور حولي ، وهذه آخر مرة أئل إليك فيها

جلس في حُجرته وهو مهطع رأسه ، والظلام من حوله يعمش العيون ويجمش الألحاظ ، جلس في الظلام يفكر ، وهو متلبط في أمره بقلب واجف من الخوف ، أشطأ قطع الورق الممزقة من جيبه وحملق فيها ، ثم ألقاها أمام وجهه وانتفض صارخا :

ـ لا ، لست أهذي ولم أهرف أو أخرف ، أنا عَاقل وفي قمة عقلي، لقد كانت تهيؤات جَوفاء لا أصل لها ولا وجود لها في هذا العالم ثم التفت إلى مكتبته واستمر في صياحه وهو يدقق النظر فيها :

ـ أنا على صَواب ، أما الشيخ عبد المجيد فهو....

ـ لا تكذب على نفسك يا ضال

يلتفت في فزع ، فيرى من يهدده يقف عند الباب وعيناه تبرقان وترعدان شزره «نصر» وجرى عليه وأطبق على رقبته بكلتا يديه ، فوجأه الآخر نحو مكتبته ، فارتطم بها ووقعت بعض كتبه فوق رأسه ، فهوى على الأرض مغشيا عليه .

ولما أفاق وجد نفسه على سريره ، والآخر واقف عند رأسه يزلقه ببصره فقال بصوت مرتعش :

ـ من أنت ؟ وماذا تريد مني ؟

ـ أنت تعرفني جيدا

يمد يده في جَيبه ويخرج الصورة الصغيرة ، ويوجهها في وجهه فيهز الآخر رأسه فيقول نصر :

– ولكنك كما سمعت مت منذ ما يقرب من خمسين سنة

– هذا صحيح

– ولكن كيف ، وأنت ماثل أمامي الآن ؟ هل بعثت من جديد؟ هل قامت القيامة ؟

– لم أبعث بعد ، ولم تقم القيامة بعد

– فما حقيقتك إذن ؟

– أعمل عقلك ، ألست تتعامل به في كل أمور حياتك، ألست تقيس به الكون وما فيه ، فَما يقبله العقل تقبله، وما يرفضه ترفضه ، حتى إنك اجترأت به على اللّه عز وجل ، وافتريت عليه

– ألم يخلق اللّه لنا العقل كي نتدبر ونتأمل به ؟

– ولكن العقل ـ كَما قلتَ ـ من صنع الله ، والله هو الخالق، فالله فوق العقل وفوق كل شيء ، فلماذا خضت في أمور سوف يعجز عقلك وعقول كل من في الكون عن الوصول إليها وإلى حقيقتها ، وسوف تشط تلك العقول وتشطح ومنها عقلك ، وربما يؤدي بك الأمر في النهاية إلى الكفر والإلحاد .

– لكني لم أجترئ به على الله ، ولم أخض به في ذات الله

– لا تكذب ، قد وصلني كل ما فعلته ، ألم تشك في الأمور الثابتة التي لا يختلف عليها اثنان ، واتخذت من العقل طريقا للوصول إلى اليقين ، ألم تعتنق كثيرا من المذاهب والحركات الهدامة سواء القديمة أو الحديثة ، ألم تتمذهب بمذهب المعتزلة أهل الكفر والضلال ؟! ألم تسلك طريقهم وطريق أمثالهم من الكفرة والمُلحدين؟! ألم تخض فيما خاضوا فيه من كلام عن الذات الإلهية وعن الأسماء والصفات ؟!

– ألم ينصحك أستاذك كثيرا بألا تتكلم فيما فوق العرش؟! لماذا مججت نصيحته ؟ لماذا ظللت عَلى عنادك ولججت في الضلال والانحراف ، ومججت كل ما يقربك من الهداية والرشاد وزحولت وجهك عنه ؟

– ماذا تريد مني ؟!

– أنا لا أريد منك شيئا ، أنا آخر نذير سيأتي لك إما أن تسمع له أو أن تضع أصابعك في أذنيك وتظل على عنادك وتموت على ضلالك ، جئت أقول لك ارجع إلى ربك ، وعد إليه ، وتب توبة نصوحا من كل تجاوزاتك وهفواتك ونزقاتك ، اشطب صَفحات مَاضيك ، واحرق كل ما يذكرك بها ، قبل أن تتلظى في نار جهنم ، وكما قلت لك أنا آخر نذير لك ، لا تعمل عقلك في الدين وفي ذات الله وصفاته ، ولا تسمع لهواجس ووساوس إبليس اللعين وأعوانه من المناجيس ، فهم يُريدونك معهم في السعير

ظلت تلك الكلمات ترن في أذنيه حتى بعدما اختفى من أمامه ولا يدري أين ذهب أو ولج ، فجلس على سريره وهو مصعوق ، هزهز رأسه ، ورمق كتبه الملقاة على الأرض ، فقام ووقف بجوارها يحدق فيها ثم انحنى وأمسك بكتاب «الانتصار» للخياط المعتزلي، قد اختفت نسخة منه عندما كان عند الشجرة ولكنه اشترى غيرها، لأنه يرى حياته في هذه الكتب، ولا يرى غيرها أمامه، فأمسك بالكتاب واحتضنه، وضعه على صَدره، وضغط عليه، واتسعت عيناه وهو يَحتضنه، وكأنه أحس بِصهد نِيران مُتقدة في صدره أو أنه يَحتضن جمرات ملتهبة، فَفتح الكتاب، وارتعشت يداه، وأخذ يوحوح من الخوف والفزع حتى رمى الكتاب في الجدار، سكله صراخ شديد ، وعدى على كتبه يرميها كتاب تلو

كتاب على الأرض يصيح ويصلق كأنه قد جن، ثم يخر فوق الكتب ويضع رأسه فوقها وهو يئن من البكاء.

دخل عليه الشَيخ الدكتور عبد المجيد فرآه على حالته تلك، فانتابته دهشة عارمة ، واختلجه قلق وهم عليه .

كواه الألم من أجله ، وكلمه حزنه عليه ، فعلاقته به لم تكن علاقة مدرس بتلميذه ، بل كَانت علاقة والد بولده ، كان يكن له كل مشاعر الأب نحو ابنه ، كان يعتبر نفسه مسئولا عنه ، في كل شيء ، حتى لما ضَل لم يتركه فريسة لجيوش إبليس وأعوانه .

أخذه إلى صديقه الدكتور «أحمد عبد الهادي» وهو عالم في الطب النفسي وقد حقنه حقنة مُخدرة كي يغط في نوم عميق، ثم التفت إلى الشيخ عبد المجيد وقال :

– هذه الحقنة ستَهدئه وتجعله ينام عشر ساعات تقريبا

– حالته خطيرة ؟

– بصراحة يا دكتور عبد المجيد وبِوضوح تام حتى الآن لم أفهم حالته ، حالته غريبة عليّ ، أول مرة أعاين حالة بمثل هذه الكيفية

– كيف ؟

– في البداية أنا شَككت في أن تكون حالة هذاء أو حالة انفصام في الشَخصية ، ثم رغبت عن ذلك ، ثم شَككت في أن تكون مَرض عصبي أو ربما تكون حَالة فوبيا رهاب أو وسواس قهري أو هِيستريا ، ولكن خَابت ظنوني كلها ، حَالته ليست كذلك ؟

– إذن ماذا تكون حالته ؟

– أنا أرجح أن يَكون لديه خلل في منطقة Consciousness

– أفضل أن تُكلمني بلغتي العربية

– يا دكتور ، هذا العلم غَربي ومصطلحاته كلها باللغة الإنجليزية

– لا تشغل بالك ، فكل العلوم أصبحت غَربية ، ذرنا في المهم

– كما قلت لك أرجح أن يكون لديه خلل في منطقة الوعي عِنده، وهذا بالتالي أثر على إدراكه ومن ثم أثر على بناء الأفكار والمعلومات المخزونة في النَشاط العقلي داخل تركيبه البيوسيكولوجي، وكان لهذا من وجهة نظري أثر على الذاكرة والأحلام مما جعله يتخيل أفكار ورؤى لأشياء وأشخاص لم يختبرها فَعلا في السابق، وأراد دُون أن يَشعر أن يَختبرها في الحاضر وهذا هو الذي جَعله يَعود بِذاكرته خَمسين عاما للوراء إما عَن طريق الذاكرة أو عن طريق الأحلام والتَخيلات ، ثم تَفاقم الأمر سوءًا لأنه صدق ما تخيله واعتبره واقعا مُعاشًا .

هز الدكتور عبد المجيد رأسه وقال :

ـ مع احترامي لحضرتك يا دُكتور أحمد ، وفائق احترامي لِعلمك وللطب النفسي ، فإن تَشخيص حالة نصر وعلاجه لَيست في الطب النفسي ، وحالته لا تدخل ضِمن اختصاصاته، فأنا أعرف جيدًا سبب الحالة التي هو فيها وأعرف عِلاجه .

بدأ الغضب يَزحف لوجهه فامتقع لونه وجلس وهو يقول بِبرود :

– إذن لِماذا أتيت إليّ ؟

– أخذت بالأسباب قَبل أن أتولى علاجه بِنفسي

– وكيف سَتعالجه ، وهذا خارج عن دائرة اختصاصك ، أنت فَيلسوف متكلم ، مالك وللعلاج النفسي ؟!

كاد أن تَنفلت من عبد المجيد أعصابه ولكنه تَحلى بالصبر وابتسم وجلس قصاده وقال :

– أنا لست فَيلسوفا يا دكتور ، كنت ، وقد عدت إلى الله ، وعرفت الحقيقة التي غَابت عني كثيرًا ، وحتى لا تلقي كلمات جوفاء أو تتحرف بك الدهشة بَعيدا سأقول لك كيف أعالجه ، عِلاج نصر موجود في القرآن الكريم .

- القرآن !

- نعم ، قال الله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وعلاج حَالة نصر وغيره موجود في القرآن الكريم ، فالطب النفسي وقف عاجزا عن تَشخيص حالته وعلاجها

- الطب النفسي علم له أصول وأسس ونَظريات وتجارب مثله مثل الطب البشري المتعلق بعلاج الأجساد والأمراض العضوية وقد أثبت نجاحه

- إلا في علاج النفس والروح ، فَعلاجهما في القرآن فقط ، أنت كما قلت هذا علم غَربي فكيف نعالج بفكر غَربي قد يكون يهوديًا أو ماسونيًا أو نصرانيًا كيف نعالج به نفس مُسلمة مؤمنة مُوحدة بالله عز وجل ؟!

- كما تُعالج الأجساد بفكر غربي أيضا وأدوية غربية

- الأمر يَختلف لأن الجسد ظاهر لكن الروح غير ظَاهرة وعلاجها عند الله فقط ليس عند أي أحد غيره

- النفس هي النفس يا دكتور عَبد المجيد ، فالنفس واحدة عِند الجميع

– لا، النَفس ليست واحدة عند كُل البشر ، نَفس المسلم غير نفس الكافر فنفس المُسلم مترعة بالإيمان والخير تعبد إلها واحدا ، لذلك فهي نفس إذا حدث فيها خَلل أو فساد لابد أن تعالج بالقرآن الكريم الذي هو كلام هذا الإله المعبود ، أما نَفس الكافر فهي مُتأفقة بالضلال والغي، نفس دنسة نجسة لا تعالج بالقرآن إلا إذا تطهرت بإيمانها ورجعت إلى الله ، وعادت إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، حِينئذ تُعالج بالقرآن لأنها حينئذ إن لم تكن نفس مطمئنة فهي نفس لوامة ، وليست نفسا خبيثة أمارة بالسوء كنفس الكافر ، وهَاتان النفسان علاجهما في القرآن الكريم وحده وليس في الفكر الغربي .

– ألم أقل لك إنك مَازلت فيلسوفا ، ومازلت تعيش في الفلسفة إن لم يَكن بعقلك فبروحك ؟

لم يتمالك هنا غَضبه فهزم كالرعد وزأر به :

ـ قلت لك لست فيلسوفا ، كان هذا في الماضي .

ثم يَهدأ قليلاً :

– أما أنا الآن فقد تَطهرت من كل العلوم والأفكار المُنحرفة الضالة ، وتسجيت بالإيمان ، وتكمكمت به ، ونزعت عني كل ما كان يربطني بالماضي المُنحرف ، فقد أثقبت النار فيه وفي كل ما يمسني به ، وأُبْتُ إلى الله وأنبت إليه لعله يَرحمني ويمحص

عَني الذنوب والآثام التي كَممتني من جراء اشتغالي بِالفلسفات وبالآراء والأفكار الضَالة ، وكما عُولجت وشُفيت منها بإذن اللّه ، سوف أعالج نَصر منها بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلفه

– مع احترامي لفكر حضرتك يا شيخ عبد المجيد فإني مؤمن بعلمي وفكري وأرى أنه لا تناقض بينه وبين القرآن، فأنا أيضا مازلت مسلما

– قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

ونَظريات وأفكار علم النفس والطب النفسي مبنية على تجارب أجريت على الحَيوانات كالكلاب والقطط ، كيف نطبق نظريات بافلوف وثورندیك وغَيرهما التي أجريت على الكلاب والقطط وهي حَيوانات عديمة العقل والفَهم كيف نُطبق نَظرياتهم هذه على الإنسان العاقل المُدرك الواعي ؟! كيف وقد بَلغت حَضارة البشرية آفاق الكون ، ومَازلنا متمسكين بآراء وافدة علينا من الغرب لَيست حتى آراءنا ، قل لي كيف نُعالج نفس مؤمنة ونشخصها بآراء فرويد اليهودي أو ماركس الشيوعي أو سارتر المنحل أو غيرهم من أعلام الفِكر الضال .

- لقد طما انفعالك يا دكتور ، والأمر لا يستدعي ذلك ، كما أن ما قلته نظريات سلوكية تربوية ليست نظريات طبية نفسية أو علاجية ، كما أنك أغفلت نقطة مهمة جدا طالما أنك ذكرت الحيوانات ، ألم تطبق العلميات الجراحية على الحيوان قبل الإنسان ، كعمليات زرع القلب ونقل كبد أو نقل أي عضو من الأعضاء أو استئصال عضو أو الاستنساخ أو غير ذلك، ثم بعد نجاح ما ينجح منها على الحيوان أجريت على الإنسان، وقد ثبت نجاح معظم هذه العمليات، أنقول أن هذا فكر ضال أيضا ولا نأخذ به مع أنه ساعد في تقدم حضارة البشرية إلى الأمام ، وهذا أيضا من دعوات القرآن الكريم إلى إعمال الفكر والتدبر والتأمل في الكون والعلم .

- أنا لم أغفل شيئا ، وسبق وأن قلت لك إن هذا متعلق بالأجساد والأجسام التي هي من تراب ، أما ما يتعلق بالنفس والروح ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ فلا شأن لمخلوق فيها ، لأن علاجها إلهي من عند الله لأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، والقرآن كلام الله ، وقد جاء لهداية الأنفس والأرواح والعقول ، وقد ذكرت فيه كل أنواع الأنفس، وعلاج كل نفس .

كما أن الأجساد مرئية وظاهرة جلية أمام الأعين ويمكن فحصها وتشخيصها وأيضا علاجها لما بينها وبين أجسام الحيوانات

من تشابه في الأجهزة والأعضاء، أما الروح فهي غير مرئية ولا ظاهرة كي نستطيع فحصها وتشخيصها وتقديم العلاج لها ، لأن النفس والروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، فالروح جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم ، فكيف نعالجها وهي من أمر الله بآراء ونظريات وتجارب بشر محدودي العقل مهما بلغ فكرهم، فعلمهم قليل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا ﴾

– ولكن النفس هي ذات الإنسان وجملته

– صدقت وهي تطلق في القرآن على ذات الإنسان وجملته، ولكن الطب النفسي لا يعالج ذوات الناس بل يعالج نفسيتهم وأرواحهم، كما أن الروح التي تتوفى وتقبض روح واحدة وهي النفس ، فلا تضلل نفسك ولا تخلط الأمور ولا تدخل معي في متاهات قد تغرقك وتقلبك بعيدا

– أنا أعلم ذلك جيدا ، فمن يستطيع أن يباريك في علمك ، فأنت أحد أهم أئمة الفكر في عالمنا المعاصر

– الفكر السليم الصحيح المبني على القرآن الكريم والحديث الشريف ، وليس الفكر الضال المنحرف ، قرين الشيطان ، ولذلك

سوف أعالجه بالقرآن الكريم، بالفكر الصحيح السليم وليس بأفكار الملاحدة من الماديين والوجوديين واليهود والنصارى ، سأعالجه بالإسلام الصحيح، والله هو المستعان

●●●

كان عليه أن يسلبه أفكاره ويسلت منه جميع نزغاته الضالة، ويجرده من تلك الفلسفات المنحرفة والعقائد المجحفة المهلكة التي حشي بها عقله، وسكنت وجدانه ، وتئق بها خياله، وشحنت بها ذاكرته، والتي جرفته بعيدا عن الحق وبوأته مساكن الشيطان، فَصار قرينه فوجده منعزلا بنفسه وعلقه فجحش به وسكن دماءه وعقله ووجدانه .

كان لابد أن يطمس كل مَعالم الضلال كي يَبذر فيه وفي عقله وفي روحه دعائم الإيمان الصحيح النَابع من القرآن ومن الهدي النبوي الشريف ، ليؤوب إلى الله عز وجل ، وإلى الطريق المستقيم، ويبعد عن طريق الضلال .

وبدأ معه، ولكن نفسه الأمارة بالسوء قرينة الشيطان أبت الرجوع ورفضت الانصياع للحق، فقد طبع على قلبه، وغطيت عينه بغشاوات، وفي أذنيه وقر، فصرخ فيه شيطانه، وهزم كالرعد، وأخذ يزمزم ويزمهر ويكفهر بوجهه حتى علاه دخان، وَوقف مجذولا، وكَبس عليه كالذئب، وأمسك بتلابيبه، وقد جَحظت

عيناه ولخصت، ثم وجأه بيده في عنقه فمال الشيخ على الأرض، ودفع المصحف الشريف الذي كَان يُرتل منه الشيخ عبد المجيد دفعه بِيده فَوقع على الأرض، ثم قَام وفر مسرعا وهو يصرخ ويصيح كالمعتوه .

نَهض الشيخ وحمل المصحف الشريف وقبله ، والتفت إلى الباب فلم يجده ، فقال لنفسه :

ـ لقد جن على ضَلال .

ثم نَظر إلى المصحف الشريف الذي في يَده ، فوجده مفتوحا على سورة الكهف، الآية السابعة عشرة فقرأها وكان ختامها :

﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾

قرأ الآية كاملة، وظل يُردد ختامها ، ثم هز رأسه حسرة، وجرض بريقه من الحزن والهم ، ثُم افتر فَمه عن أبيات مشهورة من الشعر :

بِالختم من أمر الحكيم العليم ●●● قد جرت الأقلام في ذي الورى
مثر من المال وعار عديم ●●● فمن سعيد وشقي ومن
(ذلك تقدير العزيز العليم) ●●● كل على منهاجه سالك

ثم قال : هذه مشيئة الله

ثم دندن بقول الشافعي :

وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن ●●● ما شئت كان وإن لم أشأ
ففي العلم يجري الفتى والمسن ●●● خلقتَ العباد على ما علمت
وهذا أعنتَ وذا لم تعن ●●● على ذا مننتَ وهذا خذلت
ومنهم قبيح ومنهم حسن ●●● فمنهم شقي ومنهم سعيد
وكل بأعماله مرتهن ●●● ومنهم غني ومنهم فقير

وتصلب أمام مكتبته ، وعيناه تهل فيهما الدموع وتسجيها، ثُم أسند رأسه إلى حِفنة من الكتب متراصة في صف واحد «الطريق إلى الهداية، وهداية الحيارى، وإغاثة اللهفان من مَصائد الشيطان» كلها لابن القيم ، وكتاب «المنقذ من الضلال» لأبي حاد الغزالي.

ثم قال بصوت متهالك يبعث على الشجوى :

ـ لم يعد لي من الأمر شيء

●●●

لم يعد له من الأمر شيء ، فالأمر كله لله سبحانه وتعالى، قد طبع على قلبه ، فقد اختار طريق الضلال ، ورفض طريق الهداية وزحل بوجهه عنه ، فلزب به الضلال ، ولم يعد يستجيب لِبواعث الإيمان ، فتربس على نفسه باب غرفته كما تَربس عقله، وصار حلس غرفته لا يفارقها .

جذه الفزع ، وجَعبره الخوف ، وتكمكم به ، وجثل الضلال بعقله ، ولفعه الجنون وجزمه بعدما تره في الضلال ، فغاص في صراخ ووحوحة شديدة وهو يلقي بكتبه على الأرض ، وجبينه يتلمظ عرقا حتى جبأ عليه نذيره وهو مكفهر الوجه فَوخطه الهلع وتجرع غصصه ، فأيقن بالهلاك ، فقام يجاحش عن نفسه، وظل يقذف كتبه في وجهه وهو يصيح وينعق .

ونَذيره جاحم عينيه ، قد غشا عينيه سحابة غضب وجحمت في عينه نار جحيم

زلقه ببصره ونصر يصرخ :

- تَنح عني ، اتركني ، اغرب عن وجهي ، لا أريد أن أرى وجهك اللعين

- لَن ترى وجهي بعد اليوم ، جئت أنذرك وأقول لك تفيئة ميعادك قد حانت ، قد حانت ، قد حانت

- اغرب ، اغرب

ويلقي فيه بِكتاب «الجمهورية لأفلاطون»

ويَختفي النذير، والآخر يصرخ ، ويصرخ في هذاء ، وجنون بكلام معتوه وهو ممسك بأحد كتبه يقرأ من ترهاته التي تره، وتاه، واستحال فيها، يقرأ :

«والموجودات كلها على ضربين: قديم لم يزل ، ومحدث لوجوده أول ، فالقديم هو المتقدم في الوجود على غَيره وقد يكون لم يزل ، وقد يكون مُستفتح الوجود ، دليل ذلك قولهم: بِناء قديم يعنون أنه الموجود قبل الحادث بعده ، وقد يكون المُتقدم بوجوده على ما حدث بعده متقدما إلى غاية وهو المحدث المُؤقت الموجود ، وقد يكون مُتقدما إلى غير غاية ، وهو القديم جل ذكره ، وصفات ذاته ، والمُحدث هو الموجود من عدم، والمحدثات كلها تَنقسم ثلاثة أقسام : فجسم مؤلف وجوهر مُنفرد وعرض موجود بالأجسام والجواهر ، فالجسم هو المؤلف والجوهر هو ..... والأعراض ..... والأعراض ..... الأعراض هي التي لا يصح بقاؤها .....»

لا ، لا ، لا ، لا ، .....

ومزق الكِتاب وتناثرت وريقاته المقطعة في الهواء

تره وتاه وغاب في الباطل والضلال والغي بعدما جعبه الجنون وأخذ بلهزمتيه وبيده إلى الانتحار .

وقف الشيخ عبد المجيد مع الواقفين رافعي أبصارهم ثابتي الأقدام شاخصي العيون وهم في غرفته يحدجون فيه وهو مُعلق بحبل في سقف حجرته ، وفمه مفتوح ، ولسانه مدلى على شفته السفلى ، وعَيناه شاخصة مبرقة تنظر إلى الشيخ عبد المجيد الذي أحد فيه النظر حتى تحلبت عيونه وانهالت دموعه ثم قال :

ـ عشت في ضلال ، وجننت على ضلال ، وانتحرت على جنون وضلال فمت كافرًا

●●●

وقف عند قبره وهو يقبر ، مُثبتا بصره على القبر بعد ثجومهم عنه ، حتى وجد نفسه بمفرده في تلك الوحشة

ظل يُحدج في القبر ويقول :

ـ والآن سَتبدأ معك رحلة الفناء ، وسيفنى معك كل شيء، سيتحلل عقلك الذي أتخمته بالأفكار والعلوم المُضلة والتي أهلكتك وستقذف بك في قعر الجحيم .

سيصير عقلك مرتعا للدود والهوام وسوف يشنؤك ويمقتك لأنه سيلتهم عقلا ضالا ، وقد يتأذى من ابتلاعه لأنه سيجلح تلك الأفكار والعقائد المُلحدة ، ولولا أنه مأمور لكان أشد تصميما على رفضك ومجك من فيه

سَتتحلل عيناك الجاحظتان المنحرفتان اللتان قرأت بهما كل ما هو فاسد وضال ، وسيتحلل سمعك وقلبك الذي رانت عليه الذنوب والجرائم والضلال سيتحلل جَسدك وكل ما فيك ولن يتبقى منك شيء إلا بِذرة بعثك ، وستتعفن ، وسيضجر ويضج القبر برائحتك .

الآن تسأل ، فماذا ستقول للملكين ؟ وماذا تقول لربك يوم الحساب ؟ ماذا ستقول له وأنت قد تَجرأت عليه ؟ كيف سيكون شكلك وأنت واقف بين يديه ؟ لو كنت وضعت هذا اليوم في حُسبانك وعرفت حَقيقته لتمنيت أن تكون جَاهلا لا تفقه شيئا أو مَجنونا لا يعقل شيئا أو معتوها أبهل يهرول هائما على وجهه في الشوارع ، ، وليتني كذلك ، ليتني كنت أهبل أو جاهلا أو حتى حيوانا ، ولن يتركوا ، فهناك القصاص ، وهناك الامتحان لهم في عرصات القيامة ، يا ويلي ليتني لم أولد ، ليتني لم أكن، ليتني مت لحظة ميلادي ، وليتك لم تتعلم هذا العلم ، أنا السبب ، ليتني لم أعلمك حرفا، ولم أفهمك شيئا ، ليت لساني اجتث قبل أن أعلمك، أنا السبب، ليتني صُعقت قبل أن أقول لك شيئا

لن أُسامح نَفسي أبدا

ويَسند رأسه إلى القبر وهو يَبكي ، فيرفعه بسرعة وهو مفزوع ، لم يتحمل رأسه سخونة القبر ، فتفهقت عيناه ، وانقلبتا من الذعر ، يقرب يده من القبر فيشعر بِالصهد يهجم عليه، ثم يضع يده عليه وكأن جحيما في القبر ، وكأن بابا من جهنم فتح عليه، فَيجذب يده بِسرعة ، فَكادت أن تحترق ، لقد احمرت يده ولهبت، فاشتفه الخوف ، وامتكه الفَزع ، واحتفه الهلع وسحفه الارتعاش فتراجع للخلف ثم أخرج وَرقة من جيبه، ووضعها فوق القبر، وفي طرفة عين احترقت الورقة وصارت رمادا جلته الريح

فـازداد جأفـه وجـرض بريقـه خوفـا وذهـولا، وانتفـض كَمـا ينتفـض العصفـور المسـلوخ ، وارتجـت أضالعـه ووحـوح مـن الهلـع ، وحـرك شَفتيه ليتكلم فلم تلتق شفتاه بالكلام ، فاستجمع قواه التي وهنت وقـال وهـو يرفـل في ثيـاب الرعـب :

ـ لقد بدأت أبدية السعير الآن .

وفـر مسـرعا وهـو يهفـو في مشـيته ، ويجـذف في خطـاه ، كـي يخـرج مـن ديـار الرحمـة والعـذاب ، وهـو غائـص في بَحـر العـرق الـذي شـطفه

●●●

تربـس بـاب بيتـه وحجرتـه عليـه ، وجَثـم علـى سـريره ، ولـم يَسـترد وعيـه بعـد كان يتلعلـع مـن الذهـول والفـزع ، ورفـع بصـره نحـو كتبـه ، ثـم قـام متجهـا نحوهـا وأخـذ يـدور ببصـره عليهـا مُتصفحـا عناوينهـا ، وأمسـك بأحـد المصاحـف التـي تمتـلأ بهـا مكتبتـه ، ثـم مـد يـده وأخـذ (كتـاب الطريـق إلـى الهدايـة) (وكتـاب هدايـة الحيـارى) (وكتـاب المُنقـذ مـن الضـلال) وجلـس وقـد زال عنـه مـا فيـه مـن الفـزع لمـا تـلا آيـات مـن الذكـر الحكيـم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

صدق الله العظيم

وبعدما انتهى من التلاوة ، أمسك بكتاب «الطريق إلى الهداية» وفتحه ، وبدأ يقرأ فيه وهو منكب عليه .

لقد قرر أن يعود مرة أخرى إلى التدريس ، ولكن بالعلم الشرعي النابع من القرآن والسنة ، وقبل أن يخوض في هذا البحر مرة أخرى ، كان عليه أن يجز الفكر الذي أضل نصرا ، ويجتث أصوله ، فجمع كل ما وقعت يده عليه من الكتب التي كانت سببا في ضلاله وانتحاره وأرش نارا هائلة وأخذ يمسك كتابا تلو الكتاب ويلقمه النار ، وكان قبل أن يلقي بالكتاب كان ينظر إليه نظرة سريعة ويقرأ عنوانه :

الملل والنحل للشهرستاني ، مفتاح السعادة ، إحصاء العلوم، الانتصار، تهافت التهافت ، الأفلاطونية المحدثة عند العرب، الفرق بين الفرق، الجمهورية والقوانين ، السياسة والأخلاق أرسطو ، هيجل، كانت ، ديكارد ، برقلس ، وماركس ، أنتم سبب ضلاله

ثم ألقى جَميع الكتب في النار ، ووقف يَتأملها والنار تسرطها ثم قال :

ـ لَقد كنت السبب في ضلاله وانتحاره ، كَم من البشر غيره أضللتِ ؟ كم من البشر تاه وضل وتره في الترهات بسببك وبسبب الأفكار المشحونة فيك ؟ وكلامك في أشياء فوق مُستوى العقل ، مذاهبك وعقائدك البعيدة عن الدين أهلكت الكثير ، لابد وأن أرجع مرة أخرى ، ولكن بشكل آخر بفكر وعلم لابد وأن يصل للجميع كي لا يَقع في ترهاتك أناس آخرون

كانت القاعة تَضج بالحاضرين من طلبة ، وطالبات وأساتذة جاءوا ليرحبوا بعودة المفكر «عبد المجيد نور الدين» ويَنهلون من علمه ويستمعون كلمته ، حيث طلب من لفيف منهم أن يَحضروا لسماعها.

عندما دَخل القاعة ساد الصمت المكان ، وشخصت له الأبصار والأسماع

أمسك بِالميكرفون وفتح حقيبته وأخرج بعض الكتب ثم قال:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، بِسم الله أبدأ، لم أكن أتصور أن العدد سيكون كبيرا بهذا الشكل ، ولكني فرح بهذا لأن الموضوع الذي سأثيره يهم الجميع ، كلكم مندهشون مِن عودتي المفاجئة خَاصة زملائي من الأساتذة والمدرسين الذين آتوا ليرحبوا بِي ويعرفوا سبب عَودتي ، وأنا سَأقول لكم جميعا سبب ذلك

عدت كي آخذ بَأيديكم جميعا إلى الحق والرشاد ، كي لا يقع أحد في الانحراف بِصفة عامة ، والانحراف الفِكري بِصفة خاصة، جُئت حتى لا يقع أحد في مِثل ما وقع فيه أحد تَلامذتي، كي لا تَفتقكم وتسحفكم تيارات الفكر المنحرفة البعيدة عن القرآن الكريم ، ويَسمون أنفسهم عقلاء وهم غير عقلاء والعقل مِنهم براء ، تلك التيارات التي خاضت في أمور فوق مستوى العقل

أخذت بأصحابها إلى الضَلال فضلوا وأضلوا كثيرا سواء كانت هذه التيارات قديمة كَالمعتزلة والخوارج وتَيارات الشيعة الروافض المختلفة والراوندية والأشاعرة وأفكار أرسطو وأفلاطون وبِرقلس وابن سينا وابن رشد والفَارابي وغيرهم .

أو التيارات الحديثة كالمادية والوجودية والشِيوعية والماسونية وإحياء الفكر اليوناني من جديد ، إحياء فكر أرسطو وإعادته إلى الوجود وفكر أفلاطون وغيرهما من الملحدين .

لم يلاق كَلامه رضا بعض الحاضرين خَاصة من الأساتذة والمدرسين لهذه الأفكار قام بَعضهم وسلت نفسه وخرج ، أما بعض من رفض الخروج ورفض كَلامه قام صائحا :

– ماذا تقول يا دكتور عبد المجيد؟

– أقول ما كان يَجب أن يُقال من زمن مضى ، هذه أفكار ضالة ونحن بِتدريسنا إياها نُساعد على انتشارها ، وتَأثر كثير من الشباب بها مما أودى بهم إلى الضَلال والإلحاد، وأنا أقولها بِكل صراحة يجب أن يُلغى هذا الفكر يجب أن يُطمس ، وأنا فعلت ذلك ، أثقبت النيران في هذا الفكر أحرقت جميع الفَلسفات التي كانت تغمر كُتبي .

أحرقتها وعدت إلى الله عز وجل ، وثبت إلى رشدي ، وأنا أدعوكم جَميعا لذلك أدعوكم لأن نُلقي جميعا هذا الفكر في النيران الدنيوية قبل أن تَبتلعنا نيران الآخرة ، أقولها ولا أخاف أحدا إلا الله ، هذه الفلسفات جَميعها ضالة ومضلة ويجب نزعها من صُدورنا قبل أن ننزعها من الكتب ، ونعود إلى القرآن، ففيه كل شيء ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾

قام آخر وصَعقه بقوله :

– لا ، الظاهر والواضح أنك جُننت يا دكتور

– جُننت ؟! لماذا ؟ ! لأني أقول لكم الحق ، وأدعوكم إلى الصواب، وأحاول أن أنقذكم مِن الضَلال

– أين هذا الضَلال الذي تتحدث عنه ؟

– هذا العلم كله ضَلال ، ولا فائدة منها إلا انحراف العقول، جميع القضايا التي خاض فيها شطحت بالعقل بعيدا

الله عز وجل وجوده مَعلوم لجميع الفطر السَليمة والعقول النيرة ، فلماذا نقول الأدلة المادية على وجود الله ؟

قضايا العالم بين القدم والحدوث ، والقضية التي سميت «بخلق القرآن» وقضية الجبر والاختيار ، والإنسان مسير أم مخير،

وقضية الخلافة والإمامة وعلم الكلام ، والكلام عن الروح، وعن ذَات اللّٰه وأسمائه وصفاته وأفعاله وكلامه

وقضية الشك والوصول إلى اليَقين عن طريق العَقل، وتقديم ما يقبله العقل على غيره مع أن عُقولنا قاصرة ، والمدينة الفاضلة والمثالية والكمال والواقعية والمَادية وآراء أرسطو وأفلاطون ، و... و.... و.....

ماذا أقول ، جميعكم تَعرفون ذلك جيدا ، تَعرفون ماذا قيل في هذه القضايا ، وكيف تجرأ كثير من البشر على ذات اللّٰه، وخَاضوا في قضايا فوق مستوى العَقل فتاهوا وضَلوا وأضلوا كثيرا

نحن مُسلمون موحدون باللّٰه ونؤمن برسوله صلى اللّٰه عليه وسلم ، فلِماذا ندرس وندرس هذا العلم البعيد عن الدين ؟ وقد أنزل اللّٰه لنا كتابا معلما دستورا دائما وهو القرآن الكريم فيه كل شيء، فيه العلم النَافع والخير والرشاد والهداية ، فيه النفع في الدنيا والآخرة ، من تَمسك به، وعَمل بما فيه نجا ، ومن رضي بغير ذلك ضل والعياذ بِاللّٰه .

مَازال أمامكم طريق للرجوع، يَجب أن تطمسوا هذا العلم الضَار المُضل وتَشطبوه من صدوركم، ومن كُتبكم كما فعلت أنا، وكما سأفعل معكم ، سوف أدرس لكم علما نَابعا من القرآن والسنة.

أمامكم الطَريق إما أن تَسلكوا طريق الضلال ، أو تَسلكوا طريق الهداية فتكونوا مع الذين أنعم اللّه عليهم

لقد بَينت لكم الأمور ، ووضحت لكم الحَقيقة وأنتم عليكم الاختيار

﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾

ضجت القاعة بالأصوات المتداخلة، والمُتلاطمة ما بين معارض وهم كثر ومؤيد وهم ثلة ، ظَل يسكتهم لينهي كلامه فلم يَستطع فتركهم في لغبهم وصخبهم وتَرك القاعة وانصرف .

لم يكن في بَاله ما سيحدث له بعد ذلك لما قال هذا الكلام لأن ما قاله لم يسيء إلى الدولة ، ولم يدعو إلى التَطرف والعُنف، هو قال رأيه في مناهج وقضايا ومعلومات تدرس في الجَامعات، وموجودة في الكتب ولا فائدة منها إلا الضلال وشطط العقول، ودعا زملاءه أن يسيروا على ما اختاره لنفسه محاولا إنقاذهم مما هم فيهم من الخوض في أمور لا تزيد العَقل إلا انحرافا وانجرافا عن الحق، ولَكنهم لم يرضوا بذلك فقط مُعلنين رفضهم ، ولكن تعدى آذاهم له لما أعلم بَعضهم الأجهزة المعنية بخطورة الدكتور عبد المجيد على أفكار الشباب وعقولهم .

فلما انتصف عمر الليل ومَضى منه صدره واكتهل الظلام، فوجئ بمن يقتحمون عليه شَقته فقام أهله مفزوعين زوجته وأولاده، أما هو فقد كان في مكتبه يَتلو القرآن ، وجدهم فوق رأسه وهو يتلو قوله تعالى :

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّه الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

رفع رأسه ، وابتسم ثم استمر في التلاوة:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾

فَسمع صوت أحدهم يقول أثناء تلاوته :

ـ قم معنا

لم يأبه لقوله واستمر في تلاوته، فَطما الدم في عينيه ، وفار غضبا فاقترب منه ، وأمسكه من ذراعه وجذبه وصاح به ، وهو يجذبه :

ـ ألم أقل لك : قم معنا

ثم دفعه أمامه نحو الثلاثة الآخرين الذين معه قائلا لهم :

ـ خذوه مقيداً

خرجوا به وسط صُراخ وصياح نشيج زوجته وبناته الثلاثة، وهو مُبتسم يودعهم بابتسامة مُفترة عنها شفتيه مربتا على أكتافهن مطمئنا إياهن :

ـ اطمئنوا ، سآتي قريبا لأني لم أفعل شيئا .

قال ذلك وهو يَعتقد أنه سيخرج في وقت قريب لأنه يعتقد أنه لم يفعل شيئا ولكن ما رآه هناك كان غير ذلك ، لم يكن استقبالهم له استقبالا مطمئنا أو مريحا، ومرت الأيام والشهور والسنون، لا يعرف عددها، وهو قابع في غياهب السجن وظلماته المتتالية بدون أي ذنب أو أي جريرة اقترفها .

●●●

مغتصب بين الرفات

كانت صرخاته كل ليلة تقض مضاجع أهله وجيرانه ، وتُعكر صفو راحاتهم وتقذف الرعب في أفئدتهم .

إذ لم تكَن صرخاته كصرخاتهم ، فقد كانت هيعات ونقعات، كانت كمن يسري به المَوت ، وهو ينعق ويهيع لينقذه أحد ، كانت كمن يلتهب في النار وهو يَصطرخ فيها لعل أحدًا يسمعه فيأتي لإنقاذه .

ذهبوا وذَهبت معهم إليه لنضع حدًا لهذا الصراخ الذي بات لنا مسامير في مضاجعنا ، ورصاصا في آذاننا ، وفَزعا في أفئدتنا .

لم أعد أتحمل صُراخه الفظيع الذي يذكرني بفعلته الشنعاء مع أني لم أنساها برهة واحدة ، كان يَجب أن أقتله بعدها ، ولكن نفسي لم تُطاوعني ، كيف أعالج جَريمة بجريمة ؟!

فَسكت رُغما عَني

فَما رأيته ليلتها كان أفظع شيء رأيته في حياتي ، ولن أرى بَعده مِثله ، هولان قضيا عليّ وعلى جَميع ما فيّ ، أسكتا كل ما يَنطق فيّ، موتها وما حدث لها بعد الموت .

فَحقنت نفسي في حجرتي، ولزمت تلاوة القرآن ، والاستغفار

من لَيلتها حتى هذه الليلة، التي ذَهبنا فيها إلى ذلك النباش المجرم.

وجدناه ساجدا لله ، وهو يَنقع ويأح من البكاء ، وأخذ ينطح الأرض برأسه حتى هَضبت رأسه بالدم ، غَسلوا عَنه دمه ، ووقفوا يُهدئون من روعه ، وأنا واقف أشفنه في غَضب وبُغض .

ولما هدئ بَعض الشيء قال له رجل صالح من الجيران :

ـ يا بني ، لماذا فعلت في نَفسك هكذا ؟ ولماذا تصرخ كل ليلة؟ هل هناك من يؤذيك أو يُرهبك ؟

وهو يُحمج في وجوهنا في فزع وخوف ، ولا تنبس شفتاه بحرف واحد ، يسمع منهم ولا يرد ، وأنا الوحيد فيما بَينهم الذي يعرف كل شيء عنه ، وما حدث له ولا أتكلم أيضا ، وودت لو أن تَنقض على رقبته يداي وتَذرعه .

ولكني خفت من الله عز وجل ، وخِفت على نفسي من ضياع مستقبلي ، ولم أشأ أن أهتك سيرة مَحبوبتي العطرة التي صار جَسدها مرتعا للديدان والتراب الآن .

فآثرت الصَمت الطويل ، ورجنت نفسي في غُرفتي المعتمة، وأشعلت شمعة صغيرة ، وكَببت نفسي على تِلاوة القرآن ، والاستغفار مُحاولا نسيان ما حدث تِلك الليلة .

الليلة الخامسة من شهر صَفر ، التي لا تفارق مخيلتي ، ولا يفارق روحي ما رأيته ليلتها ، ليتني أنسى ، ولكني لا أنسى، ليتني أموت لأستريح من هم الرؤية ، وأصحو من السكرة ، وأفيق من العذاب الذي يهضهضني كل ليلة بل كل سَاعة ، بل كل ثانية .

ما رأيته يَعيش معي لا يفارقني في نومي ، ولا في صحوي، آراه ماثلا أمامي ، أرى الصورة تَهتز أمام عيني ، وليتني لم أرها، وليتني لم أذهب لوداع مَحبوبتي الوداع الأخير ، ولكن أقدارنا كتبت علينا قبل أن نُخلق ، وقبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ذهبت للبكاء عند قبرها لِشدة حبي لها ، وتعلقي بها، وموتها أثناء غِيابي عن بلدتنا ، أتاني النبأ فتركت مصالحي، وأعمالي في القاهرة ، وعدت في نَفس الليلة ، فوجدتها قد دُفنت وأنا بَعيد عنها.

فَذهبت إليها ليلاً لأقف على قَبرها أناديها ، وأبكيها ، وأبلل ثراها بدموعي وآهاتي وأناتي

ولَيتني لم أذهب .....

عندما اقتربت رأيت عند قبرها هذا النباش المجرم ، فتواريت خَلف أحد القبور لأستكشف ماذا يَفعل ؟

فرأيته ينزع عنها كفنها الأبيض ويعريها خارج قبرها ، وأولج ذكره في فرجها الميت ، وأخذ يُضاجعها بين حطام الموتى، وعسكر القبور، بين من يُعذب ومن ينعم .

هالني ما رأيت ، لا أكاد أصدق ما أرى ، وكدت أن أنقض على الأرض لولا أني أمسكت بِجذع شجرة جميز ضَخمة بجوار أحد القبور .

تماسكت وانتصبت على أقدامي مرة أخرى ، وفار رأسي ، وطما الغضب في عيني ، وتَقدمت نحو القبر لأذعطه ، ولكني تَقهقرت في مُنتصف الطريق ، عِندما رأيته يرجع بظهره إلى الوراء ، ورأيتها تقوم من كفنها عارية عليها تراب الموتى .

قامت ، وهي تقبض بيديها على رقبته ، وهي تَصرخ فيه :

- لقد كُنت طاهرة فجعلتني جنبا

وكنت كاسية فَجعلتني عارية

وكنت بِكرا فهتكت عَرضي وفضضت بكارتي

اذهب يا فَاجر يا منتهك حُرمة القبور والموتى ، عذبك اللّه في الدنيا قبل الآخرة .

مـا هـذا الـذي يحـدث ؟! لا أكاد أصـدق مـا أرى ، هـل قَامـت القيامـة أم لـم تقـم بعـد ؟

نَظـرت حولـي إلـى القبـور فلـم أر أحـدا يُبعـث منهـا ، فعرفـت أنهـا لـم تقـم ، هـل هـي مازالـت حيـة أم أنهـا مَاتـت فعـلا وهـذا قَبرهـا؟

لا .... لا ..... أنـا أحلـم ، أنـا في نَومـي ولسـت في صحـوي ، ولكنـي أرى كل شـيء حولـي علـى حالـه لـم يتغيـر شـيء .

لـم أدر بِنفسـي فهويـت علـى الأرض مَغشـيا عليّ مـن هـذا الهـول، وفارقتنـي روحـي خمـس سـاعات ثـم عـادت إلـي علـى صُقـاع ديـك شـديد ، ونبِـاح كلـب ففقـت مـن غَشـيتي .

رفعـت بَصـري أنظـر إلـى قبرهـا فوجدتـه موصـدا بالحجـارة ، كأنـه لـم ينبـش قـط فبـرق بصـري ، وأدمـت النَظـر مـع سـكون كأن روحـي سُـحبت منـي مـرة أخـرى فَتأنيـت ثـم قمـت ، وأنـا مهضهـض الأعضـاء ، أهطعـت في سـيري حَتـى بـاب منزلـي ، قرعـت البـاب، لـم أنظـر إلـى مـن فَتحـه لـي ، وأخـذت طريقـي إلـى حجرتـي ، أرتجـت بابهـا ، وزبنـت نفسـي علـى السـرير ، وشَـعرت بروحـي تنسـل مـن بـين جوانحـي ، وأنـا ألمـح مِصبـاح الحجـرة ، وغرقـت في لجـة النـوم وصحـوت علـى صـوت أمـي تناديـني للطعـام ، فأبيـت الخـروج ، وسـكنت في حجرتـي بـين فـزع وخـوف ، وبـين صمـت وذهـول ، ظللـت

سبع ليال صامتا ، لا أكلم أحدا، ولا أخرج من غرفتي سوى للطعام ، وقضاء حاجتي .

كنت لا أنام سوى غفوات قليلة ، أفيق منها ، وأنا أنقع باسم حسناء .

إنها أمامي في كل ثانية ، أراها في يقظتي وفي حلمي ، أراها في كل شيء في غرفتي تناديني ، تُعاتبني تذكرني بالماضي القريب ، تلومني على ابتعادي عنها ، مع أنه لم يكن بِيدي ، وهي تعلم ذلك، فقد ابتعدت من أجلها ، من أجل أن أحصل على المال اللازم من أجل توفير مُستلزمات الزواج، ومتطلباته ، ولكن حياتها توقفت ، وعدت على الفاجعة التي قصمت ، وهصرت كل جميل في حَياتي .

عُدت لأرى ذلك النباش المُجرم الذي لم يراع حرمة الموتى ولم يعتبر بصمتهم الذي يخفي في باطنه صراخ وعذاب وسعير

عدت لأراه يفعل بها ....

لا ... لا .... لا أصدق ما رأيت ، لا ، أنا في كابوس رهيب

كنت أعلم ، كنت أعلم أنه كان يتأرها بصره في الذهاب والإياب

كان يُريدها لنفسه ، ولكنها أبت إلا قلبي وطنا لها

آه ،لا ، لا أكاد أصدق كيف أقدم هذا المجرم على هذه الفِعلة الشنعاء ، كان ينتقم منها أم مني ؟

لا أدري .

أيها المُجرم كيف خانتك نفسك ، وأغواك شيطانك لتفعل هذه الجَريمة البشعة ؟! لقد أقدمت على فعلة أعظم من الأرض ومن البحار والجبال .

الآن تريد التوبة ، يا لك من مُجرم فاجر !! ترتكب ذنبا عظيما تَخر له الجبال ثم تصرخ وتصلق كل ليلة لعل ذلك يخفف عنك هول ما رأيت ؟ أنت يجب أن تحرق في الدنيا ، وفي القبر ، وفي الآخرة ، تُحرق في كل موطن تكون فيه وتنتقل إليه .

أنت يجب أن تَصطلي بالنار التي يستعر بها قلبي كل ثانية، ولكني لست قادرا على قتلك ، يدي تَرتعش كلما أهم بمسك السكين لأسحقك بها

وكلما أحاول أن أشيل علبة أعواد الثقاب بِيدي كي أشيعك بها، ترتعش يداي ويرتجف فؤادي خوفا ، وأتقهقر إلى الخلف ، وأدخل حُجرتي الملعونة وعرقي يَرشح من جميع مسام جسدي .

ليتني أستطيع قتلك ، ليتني ..... كنت أركت من عذابي، وصححت من علتي وصحوت من سُكري الذي صهرني منذ تلك الليلة .

مع أني لو كنت قَتلته لكنت أرحته من العذاب الذي يستعر فيه كل ليلة ، حمدت الله أني لم أريحه من العذاب الذي يَمحشه كل لحظة من لحظات حياته ذلك العذاب الذي دعته حسناء عليه أن يُعذب في الدنيا قبل أن يُعذب في الآخرة .

ثَلاثون ليلة وهو يعذب منذ الليلة البشعة ، كل ليلة من غروب الشمس يسبح في صراخ فظيع وعويل طويل ، وذلك حتى طلوع الفجر ، لا يكلم أحدا ولا يرد على أحد .

حاولوا مَعه كثيرًا ، ولكن دُون فائدة ، ذهبوا به إلى بعض الأطباء ، ولكنهم جفروا عن علاجه ، فذهب به بعض الجهلة إلى زيارة قبور بعض الأولياء في زعمهم ، ولكنه رجع من عندهم أشد فزعا وصمتا وخوفا .

فقع صُراخه في تلك الليلة أكثر من أي ليلة مضت ، وحاول الرجل الصالح تهدئته بالقرآن الكريم ، فتلا سورة السجدة ، وعندما تلا قوله تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُون أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُون وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ارتعشت يداه ، ورمعت أنفه ، وارتعدت أذناه ، وارتجس جسده، وانتفض كالطير المذبوح كأنه ذعط ، وهو ينعق وينقع ويمعمع ، كالمجنون ، فهب واقفا ، وهو واضع كلتا يديه على رقبته كأن شيئا يذرعه ، وهو يحاول الفكاك من بين مَخالبه ، ولكنه لم ينجح وينقض على الأرض صريعا كالجدار .

قلبوه يمنة ويسرة ، ألقوه على ظهره ، تَحسسوا نبضه ، ولكن كان قد نفق كما ينفق الحمار .

أسففت النظر إليه ، وإلى وجهه فرأيت فَمه مفتوحا ، وعيناه مبرقتان ، فيهما شيء قليل من الدموع .

ثم رأيت وجهه قد اسود سوادا دجوجيا بعد أن كان وجهه أبيض زاهرا، ثم اسود بقية جسده كأنه شوي في النار .

لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه ، كلنا بعدنا عنه عندما رأيناه في هذه الصورة البشعة .

شعرنا بسخونة في الحجرة ، وأحسب نَفسي سمعت كلحبة ومعمعة نار عظيمة .

أحسست بالموت في المكان فهرعت مُسرعا ، وهرع على إثري مباشرة باقي الموجودين في الحجرة .

لم يجرؤ أحد على تغسيله فكلما يقترب مُنه مغسل يسمع أزيز النار ، ويحول بينهما صهد لهيبها ، فَصب عليه الماء من علو.

وحمل وشعرت بكتفي الأيسر يتآكل ، وأنا أحمل فيه إلى المقابر، فكظمت تألمي ، ولكني لم أعد قادرا فتركت ذراع النعش لشخص آخر ، وخرجت من الجنازة أنصلت في سيري حتى انجرفت بعيدا عن المقابر ، ووجدت نفسي أمام بيت حسناء ، أنظر إليه نظرة ذي علق ، حتى انهلت عيناي بالدمع

فتركت المَكان ، وأنا أهدج في سيري ، كأني أحمل جبلاً على كتفي، حتى خرجت من البلدة ، بعدما بَعثرت كل ماضيّ على ثراها، وثرى قبورها ، خرجت منها ، وأنا أودع عُمري الذي مضى فيها .

تركتها دون وداع ، تَركتها وأنا لا أدري أين أذهب ، ربما للأمان أو لحب آخر أو ربما للتيه والضياع .

لا أدري

سرت وأنا أتمتم بقول من قال :

وطريقي ما طريقي أطويل أم قصير ؟

هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور

أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير

أم كلانا واقف والدهر يجري

لست أدري

●●●

النداءات

عندما عَاد إلى بلده ، ودخل على أهله لم يعرفوه من أول وهلة، إذ إنه سافر من بلده منذ أشهر قليلة ، وهو في عُنفوان شبابه، وماء الحياة يجري في عروقه ، وشَعره الأسود الفاحم على وجهه الأبيض الملاحي كان يُعطي له بريقا من نوع خاص، فقد كان كالبرق يَخطف الأبصار إليه .

عَاد شيخا هَرما مُفندا قد تَقشع الشيب في رأسه ، فصار شعره الأسود ثَلجا ووجهه الملاحي أسود ، بَرزت عروق وجهه، وضَمر جسده حتى فطرت عظامه وبَرزت ، كأنه يَتحلل وهو حي .

فزع أهله عندما رأوه في حالته هذه، شكوا فِيه في بادئ الأمر، وسألوه عن اسمه وعن حاله وعن أمره، لم يَرد عليهم، ليس باختياره أنه رفض الكلام وإنما رغما عنه، فلم يكن في وعيه، كان مَحقونا داخل رؤيته، ومازالت آثار الصعقة تحلق في رأسه .

لم يَتكلم ، ورمز إليهم بشفتيه ، وأشار بعينه ، أحست به أمه، وأخذته في حضنها، ولكن موقف أبيه كان مُختلفا فقد رفضه ونبذه ، وهم بطرده ، ولكن زوجته لاطفته ، وأقنعته أن ينثني عن رأيه حتى يَعرفوا ما به ، وماذا حدث له ؟

فأخذته أمه ، ودخلت به غرفته ، وجثمت تسأله عم به ، وماذا حدث له ؟ وماذا أصابه ؟ وما الذي غير صورته هكذا ؟

أبى إلا الصمت والسجود بِبصره ، حاولت بكل قدرتها أن تنتزع منه كلمة واحدة تَخرج بها إليهم تطمئنهم .

ولكنه كلما يأتي ليفتح فمه ليتكلم يحس بأن شيئا يمسك لسانه، ويرجنه داخل حلقه ، كَأنه أبكم .

فينقع ويهمهم ، وتنسل دموعه من عينيه ، ويدفع أمه من أمامه حتى يخرجها من حجرته ، ويرتج عليه الباب بالمزلاج .

يحاول أن ينام ، يَتحايل على النوم فيغمض عينيه ، ويَشد الغطاء فوق رأسه ويفكر في النوم، ولكنه يَهب صارخا صالقا ...

يحاولون فتح الباب عليه ، ولكنه كان موصده أشد الإيصاد، فَتركوه لما جف صراخه ، ونضبت دموعه .

نَفض حجرته ببصره ، فرأى كتبه تفخ في نوم عميق على مكتبه الخشبي القديم ذي الرجل المَكسورة ، أسف النظر فيها ، وشفنها في غضب ومقت

ثم هز رأسه يَمينا ويسارا ، وضَحك وقهقه بصوت شديد ، حَتى بكت عيناه وصرخ ثم تحول صراخه وعويله وهَيعاته إلى قهقهة وكهكهة مقيتة ، يزماك من يَسمعها .

قام من على السرير ، وسار نحو المكتب بصمت ، ووقف يحمج فيها ثم صرخ ونفثها بيده على الأرض وهو يَنقع قائلا :

ـ هراء ، كل هذا هراء ، كل هذا العلم كذب وافتراء

لقد نَطق ، تكلم ، انتبه لذلك فوضع يده اليمنى على فمه مُندهشا متعجبا :

ـ لقد تَكلمت ، لقد حرر لساني ، لقد نطقت بعد عشرين يوما صمتا وسكوتا ما هذا ؟ أنا لا أكاد أصدق نفسي ، أنا أغط في نومي أم أنا في قمة وعيّ ؟ أنا أحلم ؟ لا لست أحلم، أنا في الواقع .

وشاح برأسه ناحية اليمين ، وسمع صوت معذب يخن في أذنيه:

ـ اجر .....واذهب

ـ الهُ ..... والعب

ـ سوف تُعذب

ضغط على أذنيه بكلتا يديه وصلق :

ـ لا ، لن تُسكتني ، لا ، اتركني في حالي

وحنّ في أذنيه صوت آخر يعذب :

ـ يا عبد الله ..... ارجع

ـ واترك ما لا يَنفع

يتلفت حوله كالمجنون وهو يصلق :

ـ لا ، دعوني ..... دعوني في حالي ، لا أريد أن أسمعكم ، كفاني ما فعلتموه بي ، كفاني ما حدث في عشرين يوما .

ليتني لم أتعلم حرفا قط ، ليتني كنت بدون عقل ، مجنونا أو معتوها .

ابعدوا عني ، وذروني، لم أعد أتحمل

ويفتحون الباب بعنف، لما أزهم صراخه ، دخلوا عليه رأوه يمزق كتبه، حاولوا منعه، فنعق بهم :

ـ اخرجوا .... ذروني بمفردي ..... لا أريد أن أرى أحدا أمامي، اخرجوا أيها السفهاء ، اخرجوا من هنا، وإلا مزقتكم كما أمزق شياطيني .

يخرجون بينما كان والده محدقا فيه يفكر في حل له ، ثم يخرج بعدهم ، ويوصد الباب عليه ، تاركينه يمزق شياطينه ، وهو يصرخ فيهم :

ـ أنتِ السبب ، أنت سبب شقائي هذا ، ليتني لم أصدقك وأصدق كلامك ، ليتني أحرقتك قبل أن أوافقك الرأي ، ليتني لم أسجن نفسي في عقلي .

كيف ؟! كيف أدع له حرية التصرف في نفسي ؟! يقودها حسب هواه ، حتى أصبحت لا أصدق إلا ما يتفق معه ، ومع هواه.

ليتني ظلفته الفكر والعلم وجعلته جاهلا أعمى أصم أبكم كالسفهاء

لماذا لم تنفتل مني وتدعني مجنونا مأفونا لا أعلم شيئا ، ولا أعرف شيئا سوى أن أسيح في الأرض كالمعاتيه .

ومزق شياطينه حتى جعلهم هثا ، وأخذ يشيل الرفات ، وينبذه في الحجرة ، وينفثه على سريره حتى غصت الحجرة برفات كتبه .

شعر براحة داخلية ، وهو يَنام فوق رفات شَياطينه وفتاتها التي أضلته الطريق وحسب أن نداءات سفره ستموت مع موت كتبه .

وأغمض عينيه في هدوء ورخاء ، وساح في نَوم بعيد ، وفي نومه صعق على نداء أحد المعذبين الذين رآهم في سفره ، وهو يَخرج من قبره يلتهب نارا ، والأغلال في عنقه ينقع فيه :

ـ يا عبد الله ..... انضح

ـ يا عبد الله ..... انفح

ـ يا عبد الله ..... الفح

ويخرج آخر من نفس القبر يقول :

ـ يا عبد الله ..... لا تنضح

ـ يا عبد الله ..... لا تنفح

ـ يا عبد الله ..... لا تلفح

ويجره من عنقه في عنف ، ويدخل به القبر .

يهب من نومه مفزوعا ، يأح من الألم ، يقفقف من الخوف، ينظر في مرآة السراحة ، فيرى صورته التي آل إليها بعدما أزته نداءات المعذبين ، يرى وجها أسود ضامرًا ، قد برزت عظامه، تعلوه سحائب بيضاء صافية كلون الثلج لا يرى فيها غيما واحدًا .

راعه وجهه ، وزمع جَسده من هول صورته ، وارتشعت يداه، فرفعهما وغطى بهما وجهه وساخ في نحيب ، ونشيج طويل ، لم يسكته إلا صوت المؤذن للصلاة .

ذهب ليصلي في الجامع المجاور لبيتهم ، انسرح في سيره، وهو صامت ، لا يحدث أحدًا ، اندهشوا من مَنظره الغريب عندما رأوه يصلي معهم :

ـ من هذا ؟ لم نره هنا من قبل

ـ أعتقد أنه غريب عن البلد

ـ منظره كأنه خارج من قبر

ـ أو آتي من سفر

ـ أو .....

تباينت أقوالهم ، وتعددت حول شخصه ، وهو يسمع كلامهم، ولا يتكلم

صلى في صمت ، وعاد إلى حجرته في سكون وهدوء ، حتى أهله لم يشعروا به في خروجه ، ولا في عودته ، ولكنهم فزعوا من صراخه ، ونشيجه وأزيزه ....

جعل حَياتهم نكدا ، أفعم البيت بالخوف والذعر بعدما كان مسكونا بالأمن والطمأنينة والسكينة .

رأى والده أن يجد له حلا ، وإلا طرده من البيت ، فأخذه معه إلى الأستاذ عارف .

أضجعه عارف ، وحمج فيه ، وأسف النظر في سواد عينيه ثم تلا بصوت شديد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾

وظل يرددها، ثم تلا عليه سور «الصافات وص والواقعة والرحمن والحاقة» ولم ير عليه أي تغير ، فهو كما هو ، فأجلسه، وقال :

ـ احك لي عن سفرك ، وما لقيت فيه ؟

ـ لن أحكي لك شيئا إلا بَعد أن ينصرف هذا الرجل

وأشار بيده إلى والده ، فاغتاظ من قوله ، وجز على أسنانه، رآه عارف فطلب إليه أن يتركه معه ، وينصرف ، يشفنه والده في غضب ، ثم خرج ، ويبقى مع عارف الذي وضع يَده على كتفه ، وجلس قصاده وقال :

ـ تكلم ، لقد رحل والدك .

وأخذ يحكي له عما رآه في سفره ، والفزع يدور في عينيه :

– كنت في رحلة استكشافية في صحراء الربع الخالي

– تَستكشف ماذا ؟

– أستكشف حضارة إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد

– وهل وجدت شيئا ؟

– وجَدت العذاب ، والسعير ، والجحيم

– كيف ذلك ؟! احك لي بالتفصيل ، ولا تخف عني شيئا

ابتلع رِيقه وشهق وتنفس نفسا عميقا وقال :

ـ كنت شابا منذ ثلاثة أشهر لم أتجاوز الخَامسة والثلاثين، قذفت بِي الرياح نَحو بئر قَديمة ، تَنبعث منها روائح نَتنة ، رائحة مَوتى ترتع فِيهم الديدان والهَوام .

جَلست إلى صخرة حتى تَسكن الرياح ، وشعرت بالنوم يتسلل إلى رأسي فتمايلت ، ولكني فُقت من نعاسي ، وهززت رأسي لأطرد النَوم منها ، ثم فجأة لما سكنت الرياح وجدت نَفسي أسمع بكل جوانحي معمعة نيران انبعث مِنها صراخ وهيعات وخَنين مَكدودين يَصطلون فِيها .

سَمعتهم يَنادون علي :

ـ يا ابن آدم

ـ اجر ..... واذهب

ـ اله ..... والعب

ـ سَوف تعذب

كان من خَلفي ، وسَمعت آخر مِن أمامي :

ـ يا عبد اللّه ..... ارجع

ـ يا عبد اللّه ..... ارفع

ـ يا عبد اللّه ..... اسمع

ـ اترك ما لا ينفع

ورأيت ثَالثا يخرج من قبره ، وهو يتلهب نارًا ، والأغلال في عنقه ، وجلده يَتساقط ، قد نضج جلد وجهه ثم بدل جلودا غيرها ، أشار إليّ بيده وقال :

ـ يا عبد اللّه ..... انضح

ـ يا عبد اللّه ..... انفح

ـ يا عبد اللّه ..... اصفح

ورأيت آخر يخرج بعده يقول :

ـ يا عبد اللّه ..... لا تنضح

ـ يا عبد اللّه ..... لا تنفح

ـ يا عبد اللّه ..... لا تلفح

ـ لا تعمل ما يلفح ، واعمل ما ينفع

وجره من قفاه ، ويَدخلان القبر مرة أخرى .

صحوت فوجدت نَفسي هكذا ، كأني أنا الذي كنت أعذب، وليس هم ، شمطت رأسي ، ونجمت عروقي ، وبرزت عظام وجهي، كأني أقف على شفير الموت ، بعدما كنت في شرخ شبابي، صرت الآن ميتا .

خبرني بالله عليك كَيف يحدث هذا ؟ كيف أشيب وأشمط بمجرد سماعي لنداءات المعذبين ورؤيتهم ؟! كيف حدث هذا ؟ كيف أفنى وأنا مازلت في ميعة شبابي ؟! كيف أفيق أجد نفسي شيخا ، وأنا مازلت شابا ؟!

دقق فيه النظر ، وحَدج في وجهه يستكشفه ثم قال :

– هل كنت نائما ؟

– لا أعرف

– هل ما حدث لك كان رؤية أم رؤيا ؟

– عندما فتحت عيناي لم أر شيئا أمامي ، ولم أعد أسمع شيئا، لا أدري كيف ذلك ؟ لا أدري

– حدثني عن البئر القَديمة التي جلست بالقرب منها

– كيف أحدثك عنها ؟

– أنت قلت أن هذه البِئر القديمة تنبعث منها رائحة موتى متعفنة، هذه البئر صفها لي .

– لقد كانت الرؤية ضعيفة بسبب الريح السيهوج ، وغبارها، ومع ذلك سأحاول تذكرها قدر استطاعتي

– ركز ، ودقق ، وصف كل ما رأيته

– لقد كانت بين جبلين لم أر مثلهما في ضخامتهما قط، وحولها حرة كلها حجارة سود كأنها السكاكين ، كانت حافة البئر مدببة مسننة بسيوف من لهيب كأنها من السعير ، صهدها محش الهواء والفضاء ، فتحولت الريح إلى ريح عقيم كأنها من السموم، كاد لحم وجهي أن يتساقط منها ، حتى أبقت وتواريت خلف الصخرة القديمة ، وبعدها لا أدري أنمت أم أغشي عليّ أم صعقت أم مت ؟ لا أدري

أفقت على صراخي ، ونعيقي ، وأنا أهوزل مسرعا لأهرب من جهنم السوداء

يرتعش فؤاد عارف ، وترتعد فرائصه وأركانه، وبرق بصره ورعد من الفزع والخوف ، وجرى نحو مكتبته ، وأمسك بكتاب الروح تصفحه ، ثم وقف عند إحدى الصفحات، حدق فيها، ثم

وضعه وأمسك بكتاب المنامات تصفحه فازداد فزعا وحمج بعينه، ثم أمسك بكتاب البستان وتصفحه ، ثم بكتاب القبور، ثم بكتاب تلو كتاب ، وبعد كل كتاب يزداد رعبه وهلعه .

ثم جرى مسرعا نحو سريره ، وأخرج صندوق سحيق من أسفله، وكب ما فيه على الأرض ، ثم أخذ منه كتاب قد بليت جلدته، كان مكتوبا على الصفحة التالية لجلدته البالية «الروح والنفس»

توضحه وأسف النظر في إحدى صفحاته ، وتثبت من الشيء الذي كان يريد أن يتيقن منه ، ثم وقف وهو خائف يرتعد

اندهش من حالته واقترب منه ، وقال في خوف :

ـ ما الأمر ؟ لقد أفزعتني ، ما حقيقة هذه البئر ؟

يلتفت إليه عارف يرشقه ببصره ثم يقول :

ـ بئر برهوت بحضرموت

قال في فزع :

ـ بئر برهوت !! وما شأن هذه البئر ؟

يخفف عارف من فَزعه لما رأى فزعه ، وقال محاولا أن يخفف عنه ما أحاط به من الذهول والفزع :

- لماذا ذهبت إلى حَضرموت ؟

- حضرموت !! أنا كُنت في صحراء الربع الخالي

- أعلم ، لكنك انجرفت إلى اللعنة في حضرموت

- اللعنة !! أنا لا أفهم شيئا ، لقد أرعبتني ، أي لعنة ؟

- سأخبرك، ولكن أخبرني أولا لماذا تركت ديارك ووطنك، وذهبت إلى الربع الخالي بالذات ؟ ولماذا تريد أن تكشف عن عماد إرم ؟

- عقلي وفكري واعتقاداتي هي التي سولت لي ذلك ؟

- كيف ؟

- كنت أعتقد بالعقل في كل شيء ، كنت أقيس عليه وبه أي ظاهرة حدثت أو تحدث أو سوف تَحدث في المستقبل، ما يتفق معه أقبله ، وما لا يتفق كنت أتركه حتى تستبين وتتكشف الحقائق بأي طريقة .

وكانت قراءاتي وأفكاري تصب في هذا الإطار الذي وضعني عقلي فيه قرأت في علوم الحياة المختلفة ، قرأت في الظواهر الطبيعية الواقعية ، ولم أقرأ عن الدار الآخرة أي شيء ، ولم أتصل بها بأي حال من الأحوال ، كانت قراءاتي في الواقع المعاش المحس .

يحرك عارف رأسه ، يندهش الآخر فيصمت ، ثم يشير إليه عارف أن أكمل ، فيكمل حديثه :

ـ وقرأت في الفَلسفات المختلفة ، ولم أقبلها كلها ، كنت آخذ منها ما يتفق مع عقلي ، وأنفث ما لا يتفق معه خلف ظهري ، وقرأت في التاريخ ، وتوسعت في قراءته ، وقرأت معظم الموسوعات التاريخية الضخمة سواء العربية أو الأجنبية ، وقرأت عن قوم «هود عليه السلام» عاد وعن الحضارة العظيمة التي أنشؤوها، والتي تفوق حضارة الفراعنة المصريين آلاف المرات، ووجدت في القرآن الكريم آيتين أثبتتا لي أنها كانت أعظم حضارة في التاريخ وأنه لم يخلق مثلها في أي بلد : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ ﴾

قلت لنفسي لابد أن أرى ذلك بعيني ، وأن أكشف سر هذه الحضارة ، فصفيت تجارتي هنا ، وأخذت كل أموالي ولم أترك لأهلي شيئا منه

– عرفت الآن لِماذا يشنؤك والدك ، أكمل

– وأخذت معي عالما من علماء الآثار المهتمين بالكشف عن الحضارات التي ذكرت في القرآن ، وكنت قد قرأت له مقالا في أحد الجرائد يتحدث فيه عن حَضارة إرم ، ذهبت إليه ، وعرضت

عليه الأمر ، وفرح فرحا شديدا بذلك إذ إنه دعا كثيرا من الهيئات وعلى رأسها هيئة الآثار بإرسال بعثة إلى هناك ولكن بدون جدوى ، خابت مساعيه ، ولكنه أقنعهم بأنهم لن ينفقوا جنيها واحدة ، وبأنه هو الذي سيتكفل بالموضوع كله فوافقوا على أن لا يتحملوا شيئا ، ولا يساعدوه بشيء فوافق على أن يأخذ معه مساعده ورفيقه وهو أنا ، وتم الأمر بعدما خاطبوا الجهات المختصة هناك بالأمر .

وأعددنا كل شيء كل ما يلزمنا في رحلتنا ، وانطلقنا ونحن لا نعلم ماذا سيحل بنا هناك

– وأين هو هذا العالم ؟

– زبنته الريح الزعزعان ، فوقع على إحدى الصخرات السوداء المستنة ، فمات من فوره .

– ففزعت ، وهربت حتى البئر القديمة ، وتواريت خلف الصخرة السوداء وحدث ما حدث .

– والآن بعدما عرفت كل شيء ، حدثني عن بئر برهوت ، ونداءات المعذبين ، واللعنة التي تَفور وتَثور في حَضرموت .

– أنت لم تَحك لي كل شيء .

– مَاذا ؟! ..... لا شيء ..... هذا كل شيء .

– قُل الصدق ، وأخبرني بِكل شيء

– لقد أخبرتك بِكل ما لاقيت .

– كذبت ، أنت لم تَحك لي عما لأقيت في طَريقك حتى وصلت بلدك

نظر إليه مفزوعا وقال :

ـ لا ... لا .... هذا كل شيء .... صدقني .... صدقني ، واللّه هذا كل شيء ولم أخف عنك أي شيء .

يهز عارف رأسه ويقول :

– سأصدقك لأنك حلفت باللّه العظيم مع أني متيقن من أنك لم تحك لي كل شيء .

– إذن حدثني عن حقيقة ما رأيت وما سمعت ، أريد أن أستريح من لظى تلك النداءات ، وإلا قَتلت نفسي .

– ما حدث لك كَان درسًا قاسيًا لابد أن تعيه جيدا ، وتفهم مغزاه، لأنك بعدت عن شرع اللّه .

– كيف وأنا أصلي وأصوم ولا أؤذي أحدا .

– هذا ليس كل الدين ، أنت ناقص الإيمان .

– كيف وأنا أقوم بأركان الإسلام الخمسة كلها

– الدين ليس فقط الأشياء والأمور الظاهرة كالصلاة والحج وغيرها، الدين لا يشتمل فقط على العبادات والعقائد الظاهرة والجلية، الدين يشتمل على العقائد والعبادات الظاهرة ، وأيضا العَقائد والعِبادات الخَفية البَاطنة

– مِثل ماذا ؟

– مثل الإيمان بالغيب ، والغيب ليس اللّه وحده ، الغيب كثير، من الغيب : اللّه ، العرش ، الروح ، الملائكة ، الشياطين والجن ، الجنة ، والنار ، وعذاب القبر ، والدار الآخرة بِكل ما فيها .

– الدار الآخرة التي لم تقرأ عنها أي شيء ، إيمانك الشَديد بالعقل ، وقدرته على قياس الظواهر التي حدثت ، والتي تَحدث، والتي ستحدث غدا هو الذي جعلك تبتعد عن الغيب ، لا أقول إنك تُنكره وإلا تكون حينها قد صبئت وكفرت والعياذ باللّه .

ثم نظر إليه محملقا فيه وقال يستكشفه :

– هل أنكرته ؟

– لا ، لا ، لم أنكره ، أنا أؤمن بالغيب .

– العقل مَخلوق ، وله قدرة محدودة على فهم وإدراك ما يحدث، لا تجعله يفتري على خالقه وصانعه ، فاللّه يخلق ما يشاء، فلا تزن بعقلك القاصر مخلوقات اللّه العجيبة ، إذا عدت إلى رشدك وفهمت قدرتك ، وقدرة عقلك الحقيقية ، وآمنت بالغيب حق الإيمان، وبخوارق العادات التي يخلقها اللّه في كونه فسوف تشفى، وتفيق من سكرتك .

– وماذا عن النداءات ، وعن البئر التي تقول عنها بئر برهوت؟

– النداءات هي نداءات المعذبين من قوم «هود عليه السلام»، عاد الذين أهلكتهم الريح العَقيم

– والبئر ؟

أسف النظر إليه وهز رأسه وقال :

– البئر ، البئر قالت طَائفة من أهل العلم أنه بئر برهوت، وقالوا إن أرواح الكفار تُعذب فيه .

– واللعنة ؟

– اللعنة التي لحقت قوم عاد الكفرة ، فأهلكوا عن آخرهم، ولحقت اللعنة مكانهم ، لذلك لن تكتشف حضارة إرم ، ولن تظهر إلى الوجود ثانية مهما حاولتم، ومهما حاول العلماء والباحثون

والمكتشفون ، ومهما وصلت إمكانياتهم وقدراتهم من تطور وتقدم، طبعا إلا إذا شاء الله غير ذلك ، فاللعنة التي لحقت قوم عاد لحقت الربع الخالي ، وحضرموت إلى قيام الساعة

– أتصدقني فيما قلت ؟

– نعم ، نعم ، مصدقك ، ولن أزن بعقلي أي شيء بعد ذلك، سأعيش وكأني بدون عقل .

– لا ، ليس هكذا الكلام ، استعمل عقلك في الحق ، ولا تشغله في الباطل والضلال ، ولا تكلفه أكثر من قدراته، وإمكانياته ، أتفهمني؟

– نعم ، أفهمك

ابتسم له وقال :

– إذن حدثني عن باقي رحلتك

– لقد قلت لك كل ما حدث معي ؟

– أنت لم تخبرني بمرورك على الجابية

– وما الجابية ؟!

– ألا تعرفها ؟

– لا ، أول مرة أسمع هذا الاسم كما أني أول مرة أسمع عن بِئر برهوت ، هل الجابية مثل بَرهوت تحتوي على أرواح الكفار والعُصاة؟

ترمع أنف عَارف من الغضب ، ويلببه وينعر في وجهه :

ـ اخرس يا جاهل ، ماذا تقول ؟ اخرج من هنا قبل أن أقتلك

يندهش ويتعجب من رد فعله ويقول :

ـ أنا لا أفهم شيئا ، ولا أكنه حقيقة الأمر ، وأول مرة أسمع عن الجابية منك فأنا لا أعرف مكانها ، ولا أعرف حقيقتها .

انتزع عن عارف غَضبه فرجع إلى حالته السابقة من الهدوء والسكينة والرزانة ، وأنزل يديه من على مَجمع ثيابه ثم قال :

– لا تزعل مني ، اعذرني

– أنا لا أفهم شيئا ، ما حقيقة الجابية هذه ؟ وأين تقع ؟ وهل هي بئر مثل برهوت أم ماذا ؟

– لا تشغل بالك بذلك

– أريد أن أعلم من باب العلم بالشيء .

– قلت لك استخدم عقلك فيما ينفعك ، وفيما هو مناسب لعقلك وقدراتك

– وهل قدراتك أعلى وأقوى من قدراتي كي تعلم هذه الأشياء وأنا لا ؟!

– لا تجادل كثيرا ، فالجدل طريق الشيطان ، وإذا اتخذت الجدل طريقة لمنهجك في الحياة فقد يضلك

– أنا لا أجادل ، ولكن ...

– قلت لك لا تسترسل في الجدل ، واتركني الآن ، أريد أن أعيش مع نفسي قليلا .

– لن أنصرف حتى أعرف منك حقيقة الجابية

– في وقت لاحق ستعرف كل شيء .

– لا وقت لاحق ، ولا وقت سابق ، أنا فعلا لا أريد أن أعرف شيئا، كفاني ما حدث لي ، ولكن أريد أن أعرف مصيري الآن .

– المصير في يد الله سبحانه وتعالى .

– لا أقصد ذلك ، أقصد صورتي هل ستعود إلى سابق عهدها قبل أن أسافر الربع الخالي ، هل ستفنى شيخوختي ويعود إلي شبابي ؟

– هذا لا يحدث إلا في الجنة .

– ماذا تقصد ؟ هل سأظل هكذا شاب في صورة شيخ ؟ ما وصفي الآن ؟ أأنا شيخ أم شاب ؟ أريد أن أعرف حقيقة أمري الآن، لا ، لا أريد أن أعرف شيئا ، كل ما أريده هو أن أعود شابا مثلما كنت ، أريد الشباب

– قلت لك هذا لا يحدث إلا في الجنة ، فاعمل صالحا وسر على الطريق المستقيم كي تدخل الجنة ، ويعود إليك شبابك ، وأجمل من شبابك.

– إذن سأظل على صورتي هذه شيخا خرفا عظامه جاحظة، وعروقه بارزة وشعره أبيض كأنه مدهون بالثلج، ليس به شعرة واحدة سوداء .

– قل الحمد لله ، على أنه ابتلاك في جسدك، وفي صورتك ، ولم يبتلك في دينك ، فأنت كنت ترمل في طريق محفوف بالضلال، وهذا من فضل الله عليك ، ومن حبه لك ، قل الحمد لله .

– الحمد لله .

– من قلبك ؟

– نعم ، من قلبي .

– من الآن فصاعدا تعامل مع الدين ببساطة وسهولة ولا تشاقق فيه ، ولا تزرع لنفسك العقد الخانقة، واعمل صالحا ،

وتعلم علما نافعا ، وانظر حولك وتفكر في مخلوقات الله بعقلك ، ولكن في نطاق الحدود والفواصل التي تمنع هذا العقل من الولوج إلى عالم التيه والضلال.

– جزاك الله خيرا ، الآن أستطيع أن أعيش بصورتي هذه، وأنا مطمئن ومستريح نفسيا وروحيا وبدنيا وعقليا .

وتركه منشغلا بكتبه ، وعاد إلى داره وقلبه متزع بالتفاؤل والأمل ، وظن أنه نسي ما رأى ، وما سمع في رحلته ، وعاش حياته بيسر وببساطة ووضع أمام عينيه طريق مفروش بالحياة وبالأمل وبالسعادة ، وليس بالموت واليأس والحزن والتعاسة .

وتمنى أن يرى ويسمع نداءات المنعمين ، وعاش على أن يتحقق هذا الحلم، لكنه لم يتحقق ، وصعق في نومه على اصطراخ أحد المعذبين ينادي عليه :

ـ يا عبد الله .

ـ لا تنس الصوت

ـ يا عبد الله ، لا تنس الصوت في حضرموت

ـ واعمل صالحا لتحظى بالنجاة

وكان هذا هو آخر نداء معذب سمعه في نومه ، فقد صعق بعد سماعه ، وهو نائم ، وصعق معه سريره ، فرج وهز حتى أز وطما ثم ذرا من شدة الصعقة

حزن عليه عارف حزنا شديدا ، وبكى عليه ، واشتاق لرؤيته أو لسماع صوته فكان يذهب إليه عند قبره ، يجلس هناك يحدث القبر، ولا أحد يرد عليه حتى ملّ وسأم من كثرة ذهابه إلى هناك .

حتى رآه في المنام آتيه في ثوب أبيض فضفاض ، رآه شابا صغيرا يخطر في بستان أخضر ينادي عليه :

ـ يا عارف ، يا عارف .

التفت إليه عارف ، وهو يغسل ثوبه في ماء النهر ، فرح برؤيته، ووقف عاريا ليس عليه شيء كيوم ولدته أمه ، وقال بوجه طلق بشوش :

– أنت ..... !! كيف حالك ؟ وماذا فعل الله بك ؟

– غفر لي ما سلف ، وأدخلني الجنة ، وأنا الآن أنعم بنعيمها

– الحمد لله ، وأين روحك الآن ؟

– روحي الآن عن يمين أبي آدم عليه السلام ، وليست في الجابية، وأرواح الشهداء سبقتنا إلى الجنة ، وهناك أرواح في أعلى عليين، كما أن هناك أرواحا محبوسة في الأرض ، ومنها أرواح

محبوسة في قبرها ، ومنها من هو محبوس في تنور ، ومنها من هو محبوس على باب الجنة ، ومنها من يكون على نهر بباب الجنة يخرج رزقهم من الجنة إليهم بكرة وعشيا ، ومنها ما يكون في قناديل ، ومنها ما يأوي تحت العرش .

– ماذا تقول ؟!!

– كما أن أرواح الكُفار عن شمال آدم عليه السلام وفي سجين ولا تصعد عن الأرض ، وليست ببئر برهوت في حضرموت

– ماذا ؟!

– لا تجر وراء الباطل ، واجر وراء الحق وخذ به

وتركه إلى بستانه الأخضر يشم أزهاره ويرفل فيه فرجع عارف إلى النهر، وألقى نفسه فيه ، وأخذ يسبح في النهر ، وهو سعيد ثم خرج وغسل ملابسه فيه ولبسها .

وقام عارف من نومه، وجد جسده وثوبه مبللين بالماء كأنه كان يسبح في نهر

ابتسم عارف وقال :

ـ الحمد لله على كل شيء ، حقا ، إن الله على كل شيء قدير.

●●●

الفهرس

الفهرس	الصفحة
إهداء:..	٥
الرؤيا:..	٧
شيء آخر غير الحياة:..............................	١٥
عِيد ميلاد:......................................	٢١
العوائق:..	٢٧
النظرة الأولى والأخيرة:...........................	٣٩
وجوه غاضبة:.....................................	٤٥
معصرة عم حمادة:.................................	٤٩
نفس لوامة:......................................	٥٣
النار:..	٦١
حديقة حيوان:....................................	٦٧
الهامش:...	٨١
سر المذبوح:.....................................	٨٥
ياسمين:...	١١٥
طريق الضلال:....................................	١٢١
مغتصب بين الرفات:...............................	١٦١
النداءات :......................................	١٧٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر